

موقف الكنيسة من الأوبئة وأثر الأوبئة في الفكر والممارسة الكنسية
"الطاعون الأسود أنموذجاً"

The Church's Stance Toward Epidemics and the Impact of Epidemics on
Ecclesiastical Thought and Practice "The Black Death as a Model"

[10.35781/1637-000-148-004](https://doi.org/10.35781/1637-000-148-004)

الباحث/ عبدالله بن شباب بن ربح السبيعي*

*باحث دكتوراه بجامعة الملك خالد

الملخص

- أن الكنيسة تبنت تفسيرات دينية للوباء في بداياته، واعتبرته عقاباً إلهياً، مما أثر في ممارساتها الطقسية.

- أن الطاعون الأسود كشف عن ضعف المؤسسة الكنسية في مواجهة الأزمات، مما أدى إلى تراجع الثقة الشعبية بها.

- أن الوباء أسهم في تغير الفكر الديني الأوروبي، وظهر اتجاهات نقدية تجاه الكنيسة، مهدداً لتحولات كبرى لاحقة مثل الإصلاح الديني.

- أن الأوبئة شكّلت عاملاً مهماً في إعادة تشكيل البنى الاجتماعية والاقتصادية، وهو ما انعكس على دور الكنيسة ومكانتها.

الكلمات المفتاحية: الطاعون، الطاعون

الأسود، الكنيسة، الأوبئة، الفكر الديني، أوروبا الوسيطة.

يهدف البحث إلى دراسة موقف الكنيسة من الأوبئة وأثرها في الفكر والممارسة الكنسية، مع اتخاذ الطاعون الأسود أنموذجاً تطبيقياً، وذلك من خلال تحليل المواقف الدينية والاجتماعية التي تبنتها الكنيسة الأوروبية أثناء الوباء، وبيان انعكاساته على البنى الفكرية والطقوس الدينية.

اعتمد البحث على المنهج التاريخي التحليلي من خلال تتبع المصادر الأولية المعاصرة للوباء، مثل كتابات الأطباء والمؤرخين الأوروبيين، إلى جانب المنهج الوصفي التحليلي في دراسة أثر الوباء على الفكر والممارسة الكنسية، وربط ذلك بالسياق الاجتماعي والسياسي في أوروبا في القرن الرابع عشر الميلادي.

وتوصل البحث إلى عدد من النتائج، أبرزها:

The Church's Stance Toward Epidemics and the Impact of Epidemics on Ecclesiastical Thought and Practice "The Black Death as a Model"

Abdullah bin Shabab bin Ribah Al-Subaie *

*PhD Researcher, King Khalid University

Abstract

This study examines **the Church's stance toward epidemics and their impact on ecclesiastical thought and practice**, with a particular focus on the **Black Death** as a historical model. The research analyzes the religious and social responses adopted by the medieval European Church and explores how the epidemic reshaped theological perspectives and ecclesiastical behavior.

The study employs the **historical-analytical method**, drawing on primary contemporary sources such as medical treatises and chronicles, in addition to the **descriptive-analytical approach** to assess the broader intellectual and social implications of the epidemic within fourteenth-century Europe.

The research concludes with several key findings, including:

- The Church initially interpreted the epidemic as divine punishment, which influenced its rituals and public discourse.
- The Black Death exposed institutional weaknesses within the Church, leading to a noticeable decline in public trust.
- The epidemic contributed to significant shifts in European religious thought, paving the way for later movements such as the Reformation.
- Epidemics played a crucial role in reshaping social and economic structures, which in turn affected the Church's authority and societal role

Keywords: plague, Black Death, epidemics, social and economic impacts.

مقدمة

يُعدّ الطاعون الأسود من أعظم الكوارث الوبائية التي شهدتها أوروبا في العصور الوسطى، وقد ترك أثراً بالغاً في بنية المجتمع والدين والفكر. وقد مثل هذا الوباء اختباراً حقيقياً لمكانة الكنيسة ودورها، كونه كشف عن طبيعة استجاباتها الروحية والطقسية في مواجهة الأزمة. ويسعى هذا البحث إلى عرض تعريفه، وسبب تسميته، وسبب وقوعه، وكيفية انتشاره، وتحليل موقف الكنيسة من الأوبئة، وبيان أثر الطاعون الأسود في تشكيل الممارسة الكنسية والتحويلات الفكرية المصاحبة له. وبيان آثاره الاجتماعية، وآثاره الاقتصادية، وهذا ما ستوضحه الصفحات التالية:

مشكلة البحث

تتمثل مشكلة البحث في: غياب دراسة علمية متخصصة تُبرز موقف الكنيسة من الأوبئة، ولا سيما الطاعون الأسود، وتكشف أثر هذه الأوبئة في تشكيل الفكر والممارسة الكنسية في أوروبا العصور الوسطى.

هدف البحث

يهدف البحث إلى: تحليل موقف الكنيسة من الأوبئة، وبيان أثر الطاعون الأسود في الفكر الديني والممارسة الكنسية، وربط ذلك بالتحويلات الاجتماعية والسياسية التي شهدتها أوروبا في القرن الرابع عشر الميلادي.

أسئلة البحث

يحاول البحث الإجابة عن الأسئلة الآتية:

1. ما موقف الكنيسة من الأوبئة عموماً، ومن الطاعون الأسود خصوصاً؟
2. كيف أثر الطاعون الأسود في الفكر الديني والطقوس الكنسية؟
3. ما العوامل التي أسهمت في انتشار الطاعون الأسود في أوروبا؟
4. كيف نظر المجتمع الأوروبي إلى موقف الكنيسة أثناء الوباء؟
5. ما أبرز الآثار الاجتماعية والاقتصادية التي خلفها الطاعون الأسود؟
6. ما العلاقة بين الأوبئة والتحويلات الفكرية والدينية اللاحقة في أوروبا؟

الدراسات السابقة:

لم أجد فيما بين يدي رسالة تناولت موضوعي او قريباً منه إلا دراسة واحدة وهي:

• رسالة " الأوبئة في مصادر الديانات الكتابية دراسة عقدية مقارنة" رياض العمري- منشورة في

مجلة الدراسات العربية ، كلية دار العلوم - جامعة المنيا

هدفت الدراسة إلى بيان موقف مصادر الأديان الكتابية من مفهوم الأوبئة، وأسبابها، ومنهج

التعامل معها، وأوجه الاتفاق والاختلاف في التعامل معها، وهذه الدراسة تفارق دراستي من عدة وجوه:

انها عامة للأديان الكتابية ورسالتني خاصة بالنصرانية.

وأنها مقارنة بين مصادر الأديان الكتابية، ودراستي خاصة بموقف الكنيسة من الأوبئة.

أنها تتعلق بمصادر الأديان، ودراستي تتعلق بتطبيق تعامل المسيحية مع نازلة وباء الطاعون الأسود

وقدرتها على التعامل معها وأثر ذلك عليها.

التوصيات :

1. ضرورة تعزيز الدراسات العربية حول تاريخ الأوبئة وتأثيرها في الفكر الديني.
2. تشجيع الباحثين على دراسة علاقة المؤسسات الدينية بالأزمات الصحية عبر العصور.
3. الاستفادة من التجربة التاريخية للطاعون الأسود في فهم تفاعل المجتمعات مع الجوائح الحديثة.
4. الدعوة إلى بناء دراسات مقارنة بين موقف الكنيسة وموقف المؤسسات الدينية الإسلامية من الأوبئة.
5. أهمية توظيف المناهج متعددة التخصصات (التاريخ، علم الاجتماع، الدراسات الدينية) في دراسة الأوبئة.

أولاً: تعريف الطاعون الأسود

يعدّ الطاعون الأسود من أبرز الكوارث الوبائية التي عصفت بأوروبا في العصور الوسطى، إذ مثّل نقطة فاصلة في التاريخ الإنساني بما خلفه من آثار مدمّرة على السكان والمجتمعات. وقد أثار الطاعون الأسود اهتمام الباحثين والمؤرخين على مرّ العصور، نظراً لشدة فتكه وتأثيره العميق في البنى الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، إلى جانب ما أتاحته الدراسات العلمية الحديثة في علم الأحياء الجزيئي والأنتروبولوجيا من إعادة فهم أصوله وطرق انتشاره، وعليه تعددت وجهات النظر التي تناولته بالتعريف ولعل ذلك يقتضي الإشارة بداية إلى المعنى اللغوي للطاعون، وذلك على النحو التالي:

(1) الطاعون لغة

جاء في لسان العرب أنَّ الطاعون مشتقٌّ من الفعل "طَعَنَ"، وقيل سُمِّيَ بذلك لأنه يطعن الإنسان فيقتله سريعاً، وهو المرض العام القاتل الذي يفسد الهواء فتحدث عنه آفة عظيمة⁽¹⁾.
 كما عرّفه المعجم الوسيط بأنه "مرض وبائيّ خطير سريع الانتشار، يسببه ميكروب خاص، ويتميّز بارتفاع الحرارة وتورّم الغدد اللمفاوية وظهور الدمامل، وقد يؤدي إلى الموت"⁽²⁾. وكذلك هو "مرض الكثيرين من الناس في جهة من الأرض وغيرها، ويكون مرضهم نوعاً واحداً بخلاف سائر الأوقات؛ فإنّ أمراضهم فيها مختلفة"⁽³⁾.

(2) الطاعون اصطلاحاً

عرفه ابن سينا على أنه ورم حارّ يعرض في المواضع الغُدِّيّة وغيرها، وأكثر ما يكون بالآباط وخلف الأذن، ويعرض مع حرارة وحمى وخفقان وعطش شديد، وسببه دم رديء يتولد من فساد جوهر الهواء⁽⁴⁾.
 وعرفه ابن خاتمة الأندلسي في رسالته عن الطاعون بأن "الطاعون علة قتّالة، يعرض منها ورم في المواضع الغُدِّيّة من البدن مع تلهب شديد وحمى، وسببه استنشاق الهواء الفاسد الذي يفسد الروح والقلب"⁽⁵⁾.
 وعرفه ابن حجر العسقلاني على أنه "مرض يعمّ الكثير من الناس في جهة من الجهات ويكون مرضهم نوعاً واحداً بخلاف غيره من الأوبئة، ويُحدث ورماً مؤلماً مع حمى شديدة"⁽⁶⁾.

⁽¹⁾ لسان العرب، ابن منظور، ج 13، بيروت، دار صادر، 1999، ص 241.

⁽²⁾ المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ط4، القاهرة، مكتبة الشروق الدولية، 2004، ص 566.

⁽³⁾ تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد، في ثلاث رسائل أندلسية في الطاعون الجارف (1348/هـ)، تحقيق: محمد حسن، سلسلة التاريخ، بيت الحكمة، أحمد بن علي الأنصاري ابن خاتمة الأندلسي، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، ص 210.

⁽⁴⁾ القانون في الطب، ابن سينا، ج 3؛ تحقيق: إبراهيم مذكور، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1999، ص 241-242.

⁽⁵⁾ تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد، ابن خاتمة الأنصاري، تحقيق: محمد العربي الخطابي، الرباط، منشورات كلية الآداب، 1987، ص 55-56.

⁽⁶⁾ بذل الماعون في فضل الطاعون، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: أحمد عصام عبد القادر، جدة، دار المنهاج، 2006، ص 83-84.

أما المازري فقد عرّف الطاعون بأنه: "ورم رديء يحدث في المواضع الغُدِّيّة مع ورم وسخونة وحُمى، ويقترن غالباً بفساد الهواء"⁽¹⁾.

وقال ابن خلدون عن الطاعون في المقدمة: "واعلم أنّ الوباء هو فسادٌ يعرض للهواء فيتلف مزاج الأجسام، فيحدث عنه فساد المزاج، ثم يعقبه الموت غالباً. وأعظم ما يعرض من ذلك الطاعون، وهو موتٌ عامٌ يقع في الأمم، ويفني الكثير من البشر، وذكر عن طاعون القرن الثامن الهجري: "وقع الطاعون الجارف في منتصف هذه المائة (الثامنة)، فذهب بأكثر من ثلثي الناس في الأمصار والبوادي، وقُلّت الأعمال، وخربت البلاد، وتبدّلت الأحوال"⁽²⁾.

وقد جعل ابن خلدون سببه في الغالب: "فساد الهواء بكثرة العمران، وكثرة ما يخالطه من العفن والرطوبة الفاسدة... إذا فسد الهواء... وكان الفساد قوياً وقع في الرئة... إن كان الفساد دون القوي تكثر الحميات، وتمرض الأبدان وتهلك"⁽³⁾.

أما الطاعون عند الأطباء الأوروبيين فقد ورد في الوثائق المعاصرة التي رصدت ما كتبه الأطباء عن الطاعون بعدة مسميات اختلفت باختلاف رؤية الكاتب أو شاهد العيان للطاعون، فقد ربط البعض بين اسمه وما ترتب عليه من نتائج وفاجعته بموت الكثير، أو ربطوا بين اسمه وأعراضه، أو الربط بين اسمه ومصدره.

ومن أرباب الفريق الأول الطبيب الفرنسي الشهير المعاصر للأحداث والذي خاض بنفسه معركة الوجود ضد الطاعون الأسود: "جي دي شولياك" Guy de Chauliac (ت 769هـ / 1368م)، الطبيب الخاص للباباوات، الذي ألف كتاباً طبياً شهيراً عن الجراحة، وقد أطلق على الطاعون مسميات قريبة في معناها من الموت العام للدلالة على عالمية الوباء وعموميته وانتشاره على نطاق واسع في تلك الفترة، فقد قيل أن ثلثاً سكان بعض المدن الأوروبية قد ماتوا في الوباء، أما العالم كله فقد قدر أن ربع سكان الكرة الأرضية قد ماتوا⁽⁴⁾.

ويرى أن هذا الوباء يختلف عن الأوبئة التي حلت بالعالم من قبل، لأن الأوبئة السابقة كانت تضرب بلد بعينها، أو مجموعة من البلدان، أما هذا الطاعون كان عالمياً، ضرب قارات العالم

¹ (تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي، الكويت، وزارة الإعلام، 1987، ص 399.

² (المقدمة، ابن خلدون. بيروت: دار الفكر، 2005، ص 357-358، 398-399.

³ (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، عبدالرحمن بن محمد بن خلدون، تحقيق: خليل شحادة، ج 1، بيروت، دار الفكر، 1988، ص 376.

⁴)Walsh J.J.: Guy de Chauliac, Old-time makers of medicine, Catholic Churchmen in Science, New York, 2007, p. 282- 285 ; David A. K. Watters: Guy de Chauliac: pre-eminent surgeon of the Middle Ages, ANZ Journal of Surgery · October 2013, p.730-734.

الثلاث⁽¹⁾، لذلك ورد في بعض الحوليات الأوروبية ما يفيد بعموميته وارتباطها باسمه فاعتبرته الحوليات المعاصرة في تلك الفترة أنه أول موت عام⁽²⁾.

كما ورد في بعض الحوليات المعاصرة باسم Peste المستمدة من الكلمة اللاتينية Pestis والتي تعنى المصائب الكبرى التي تحدث للإنسان، ونظراً لعظم فاجعة هذه الجائحة، فقد ارتبط هذا الاسم بطاعون 747هـ/ 1349م، لما له من وجهة نظر المعاصرين من هول عظيم، ولذلك منذ ذلك التاريخ أصبح يطلق عليه في بعض الحوليات المعاصرة باسم Peste لأنه خلف وفيات كارثية⁽³⁾.

ولقد ورد هذا الاسم أيضاً في المجموعات الوثائقية التي تضم شهادات عدد من القلاع الطبية والأطباء والمعاصرين، والتي قام بنشرها المؤرخ جون ابيرث John Aberth في كتابه عن الوباء الأسود الذي اعتمد فيه على مجموعة وثائقية من مصادرها الأولية، وكلها جاءت لشهود عيان، وذكر أيضاً أن الأطباء والمؤرخين والأدباء وكل من كتب عن ذلك المرض من الأوروبيين المعاصرين له ربطوا بين اسمه وعموميته فلأنه عم العالم بأسره، وكانت نسبة الوفيات فيه مرتفعة، أطلق عليه البعض من المؤرخين في العصور الوسطى اسم الموت العام، أو الوفيات العظمى The Great Mortality وبخاصة في مناطق إيطاليا⁽⁴⁾.

وتؤكد فكرة المرض العام، كثرة الوفيات التي كانت في أوروبا في تلك الفترة، حتى أن أحد شهود العيان يذكر أنه شاهد بنفسه مرات عديدة، وفي شوارع متفرقة، أن أعداد كبيرة من الفقراء الذين ماتوا من المرض تم إلقائهم في الشارع وشاهد بنفسه الخنازير تنهش الجثث التي كانت تملأ الشوارع⁽⁵⁾.

ومن أرباب الفريق الثاني الذي ربط بين اسم المرض وأعراضه ما ورد في كتابات الطبيب والمؤرخ الألماني هيكير Hecker وذلك في كتابه الوثائقي عن الموت الأسود في القرن الرابع عشر، والذي نشر فيه مجموعة وثائقية لشهادات طبية وتاريخية معاصرة أن عدداً من المعاصرين ربطوا بين أعراض المرض

¹)Stephane Barry: La Peste noire dans l'Occident chrétien et musulman، 1347-1353 Canadian Bulletin of Medical History، Volume 25 Issue 2، Fall 2008، p. 461-462.

²)Guy de Chauliac: La Grande Chirurgie de Guy de Chauliac. Chirurgien، Maître en Médecine de l'Université de Montpellier: Composée en l'An 1363، Felix Alcan،Paris: 1890،p.170-171.

³)André Burguière: Dictionnaire des sciences matiere: peste:par Jean-Noël Biraben. Presses Universitaires de France،Paris،1986،p.505.

⁴)John Aberth: The Black Death، The Great Mortality of 1348-1350 abrief history with documents،(Bedford Series in History and Culture)، Palgrave Macmillan، New York، 2009،P.1-2.

⁵ (الديكاميرون، جيوفاني بوكاتشو:، ترجمة صالح عثمان، دار المدى للثقافة، سوريا، دمشق، 2006 م، ص 41 - 42 .

واسمه، فقد أطلقوا على هذا الطاعون كلمة Plague وهي كلمة مشتقة من الكلمة اللاتينية Plaga وتعني الورم أو الانتفاخ، لأن تورم أجزاء في الجسم في أعلى الفخذين وتحت الإبطين، ومناطق أخرى كانت أهم أعراض المرض⁽¹⁾.

كما ربط البعض بين اسمه وبين مصدره، فلأن مصدر الوباء بالنسبة لأوروبا كان الشرق، أطلق عليه البعض من المعاصرين له في كتاباتهم اسم الطاعون الشرقي oriental plague⁽²⁾. يتضح من هذا العرض أن منشأ المرض يعود إلى بكتيريا تحملها البراغيث، إذ تؤدي إصابتها بهذه البكتيريا إلى عجزها عن التغذية بصورة طبيعية، فتنتقل إلى التطفل على الفئران والجرذان وتتغذى من دمائها. وعند لدغ الضحية وغرز أنيابها في جسده، تنتقل البكتيريا إليه، مسببة العدوى التي تنتهي في الغالب بالهلاك والموت.

وفي ضوء التعريفات السابقة، فقد صنف البعض العدوى بهذا الوباء على ثلاثة أشكال، هي⁽³⁾:

1- الطاعون الدبلي (الدملي الغدي)

وهي أكثر الأنواع حدوثاً وينتقل المرض بين القوارض كالفئران حيث ينتقل فيما بينها بواسطة البراغيث التي تسبب لها الوفاة وعند حدوث الأوبئة تنتقل هذه البراغيث من أجسام القوارض الميتة وتهاجم جسم الإنسان لتتغذى على دمه وتصبح معدية لعدة أشهر لاحقة.

2- الطاعون الرئوي

وهو أكثر أنواع الطاعون خطورة لسهولة انتقاله بين المخالطين للمريض خاصة في الظروف المناخية والبيئية غير الصحية، وهذا النوع قد ينتقل من إنسان لآخر عبر الهواء حين يستنشق ذرات هواء ملوثة بالجرثوم وذلك عن طريق العطاس أو السعال أو البصاق وينتقل أيضاً عن طريق فضلات الشخص المريض إلى الشخص السليم.

¹ J. F. C. Hecker: The Black Death in the Fourteenth Century. Translator: B. G. Babington, A. Schloss, Foreign Bookseller, London, 1833, p.4-6.

² J. F. C. Hecker: Ibid., p.4.

³ انتشار الطاعون في أوروبا في العصر الوسيط، عزالدين الدرسي وفتحية ميمون الطيب، مجلة كلية الآداب، جامعة بنغازي، ع51، 2021، ص89.

3- الطاعون الدموي

يحدث حينما يتم تكاثر الجراثيم داخل الدورة الدموية وقد يكون ثانوياً لإصابة بالطاعون الرئوي أو الدبلي، أو يحدث دون ارتباط بينهما والطاعون الدموي لا ينتقل من إنسان لآخر، ومن أهم أعراضه المميزة لهذا النوع إصابة المريض بالحمى وهبوط حاد، والألم في البطن مع بقع من الدم تحت الجلد تشبه الكدمات.

وقد وصل الطاعون إلى أوروبا وبلدان البحر الأبيض المتوسط وهو من النوع الأول عبر التجارة والطرق التجارية البرية والبحرية من الصين وأواسط آسيا حيث كان منتشراً ولكنه ما إن وصل عام 1347م إلى القرم والقسطنطينية حتى انتشر بسرعة وضرب جنوة وصقلية ومرسيليا ثم أسبانيا والبرتغال وإنجلترا وألمانيا واسكندنافيا وبعض بلدان ما يسمى اليوم بالشرق الأوسط.

ثانياً: سبب التسمية بالطاعون الأسود

عن اسم الموت الأسود (The Black Death) أو الطاعون الأسود The Black plague فكان أول من أطلقه عليه الطبيب والمؤرخ الألماني هيكير في كتابه الوثائقي عن الموت الأسود في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي وانتشر الاسم في ألمانيا ومناطق أخرى في الشمال الأوروبي ونعتوه بالموت الأسود، وأرجع السبب إلى ذلك لظهور بقع سوداء في جسم المريض قبل موته لحدوث نزيف تحت الجلد (1).

ومنذ أن ذكر هيكير اسم الطاعون الأسود، أو الموت الأسود The Black Death انتشر الاسم، وأصبح مصطلح يقصد به طاعون القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، وفي أواخر القرن التاسع عشر الميلادي وأوائل القرن العشرين أطلق أطباء أوروبا على مرض الطاعون الذي اجتاح العالم قرب منتصف القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي اسم الطاعون الدبلي Dubonic plague تمييزاً له عن غيره من الأوبئة، وترجع تسميته بالدبلي لارتباطه ببعض الأورام في بعض مناطق الجسم والتي كانت تظهر على المريض قبيل وفاته مباشرة(2).

وتعدّ العصور الوسطى عصور الإيمان، حيث انعكست طبيعة التفكير الديني والفلسفي على تفسير المعاصرين للأزمات الكبرى، ومنها وباء الطاعون الأسود. فقد رأى بعض المؤرخين الأوروبيين أنّ

¹ J. F. C. Hecker: Ibid.,p.5.

² Norman F. Cantor: In the Wake of the Plague: The Black Death and the World It Made، Free Press: New York، 2001، 14-15; John Aberth: The Black Death,p.23

الوباء كان غضباً إلهياً أنزله الله عقاباً على خطايا البشر⁽¹⁾، بينما اعتبره آخرون نذيراً على اقتراب نهاية العالم⁽²⁾ وذهب فريق ثالث، خاصة من المشتغلين بعلم الفلك، إلى أن سببه يعود إلى عوامل فلكية، مثل خسوف القمر أو اجتماع بعض الكواكب كالمريخ وزحل تحت ظروف محددة، مما يؤدي إلى تسمم الهواء وانتشار المرض⁽³⁾ ويلاحظ هنا تأثير كتابات ابن سينا التي تُرجمت إلى اللاتينية، وكذلك مؤلفات جالينوس التي وصلت عبر علماء العرب، فضلاً عن إسهامات بعض علماء الأندلس الذين ربطوا بين الظواهر الفلكية وانتشار الأوبئة⁽⁴⁾

كما يظهر تأثير آراء أرسطو التي نقلها المترجمون العرب إلى أوروبا، حيث رُبط بين التقاء كوكبي زحل وعطارد وانتشار الموت بين البشر⁽⁵⁾ وإلى جانب هذه التفسيرات، أشار بعض المعاصرين إلى أن الزلازل التي وقعت عام 1347م أدت إلى إطلاق الغازات السامة من باطن الأرض وانتشارها في المدن والوديان، مما ساهم في تفشي الطاعون في أنحاء أوروبا الغربية⁽⁶⁾.

مما سبق يتضح كيف امتزجت التفسيرات الدينية والفلسفية والعلمية في العصور الوسطى لفهم وباء الطاعون الأسود. ويلاحظ أن غلبة النزعة الإيمانية والميتافيزيقية جعلت بعض المفكرين يفسرون الطاعون على أنه عقاب إلهي أو علامة على نهاية العالم، وهو ما يعكس طبيعة التفكير الجمعي في تلك المرحلة. في المقابل، حاول آخرون البحث عن أسباب "علمية" وفق معارف عصرهم، سواء عبر الظواهر الفلكية أو الكوارث الطبيعية مثل الزلازل، مما يدل على بدايات توجه نحو التفسير الطبيعي للأحداث.

كما يتضح أيضاً أن الفكر الأوروبي في تلك الفترة لم يكن معزولاً، بل تأثر بوضوح بترجمات أعمال ابن سينا وجالينوس وأرسطو التي انتقلت عبر العلماء العرب والأندلسيين، وهو ما يعكس دور الحضارة العربية الإسلامية في تشكيل الرؤية الطبية والفلسفية الأوروبية. ومع ذلك، تبقى هذه

¹) Benedictow, O. J., The Black Death, 1346–1353: The Complete History. Boydell Press, 2004, P.47.

²) Cohn, S. K., The Black Death Transformed: Disease and Culture in Early Renaissance Europe. Arnold Publishers, 2002, P.89.

³) Aberth, J. (2010). From the Brink of the Apocalypse: Confronting Famine, War, Plague, and Death in the Later Middle Ages (2nd ed.). Routledge, P.112.

⁴) Dols, M., The Black Death in the Middle East. Princeton University Press, 1977, P.56.

⁵) Kelly, J., The Great Mortality: An Intimate History of the Black Death, the Most Devastating Plague of All Time. HarperCollins, 2005, P.74.

⁶) Horrox, R. (Ed.), The Black Death. Manchester University Press, 1994, P101.

التفسيرات محدودة مقارنة بما توصل إليه الطب الحديث من كشف أن الطاعون سببه بكتيريا يرسينا بيسيتيس وانتقالها عبر القوارض والبراغيث.

ثالثاً: أسباب انتشار الطاعون الأسود

بالنظر إلى الرواية الأوربية للتعرف على أسباب الطاعون الأسود، فعلى المستوى الرسمي ورد في وثيقة كلية الطب في باريس "...نحن، أطباء كلية الأطباء في باريس، قمنا بعد دراسة واستشارة ناضجة بشأن الوفيات الحالية، بجمع نصائح أساتذتنا القدامى في الطب، ونعتمد التعريف بأسباب هذا الوباء، بشكل أكثر وضوحاً مما يمكن القيام به وفقاً لقواعد ومبادئ علم التجسيم والعلوم الطبيعية؛ لذلك نعلن أنه بالنسبة لأسباب المرض، بشأن القضية العالمية والبعيدة. لذلك نقول ذلك... أن السبب الأول لهذا الوباء، كان ولا زال أمراً قد حدث في السماء ففي تمام الساعة الواحدة بعد ظهر يوم 20 مارس 1345م، حدث اقتران بين ثلاثة من أعلى الكواكب في الفضاء، زحل والمشتري والمريخ، في هيئة دلو محدثاً فساداً في الهواء المحيط من حولنا... وعلى الرغم من أن الأوبئة قد تنشأ عن تلوث الماء والغذاء، إلا أن الأوبئة التي تنشأ عن تلوث الهواء تكون أشد فتكاً بالإنسان⁽¹⁾.

وكانت الرواية الطبية الثانية وهي جامعية أيضاً برعاية الطبيب المشهور جنتيل دا فولينييو Gentile Da Foligno مع أساتذة كلية الطب في جامعة بيروجيا Perugia الإيطالية، ويمكن القول أن الطبيب فولينييو كان أحد أبطال المعركة ضد الطاعون الأسود فلا يزل في الميدان حتى أصيب بهذا المرض وتوفى بإصابته في 18 يونيو 1348م⁽²⁾.

وقد نشر المؤرخ الألماني الشهير كارل سودهوف Karl Sudhoff (ت 1938م) وهو مؤرخ الطب الألماني، ومؤسس معهد تاريخ الطب بألمانيا، في كتابه الوثائقي عن الطاعون الأسود وثيقة للطبيب الإيطالي فولينييو عن مرض الطاعون الأسود، والذي ذهب إلى نفس السبب الفلكي وهو اقتران الكواكب الكبرى زحل والمشتري والمريخ، الذي أدى اقترانها إلى وجود مادة سامة في الهواء تنتقل لجسم الإنسان بين القلب والرئتين والمادة السامة هذه من الأبخرة التي حملها الهواء الذي يتنفسه الإنسان، وأوضحى ينتقل من شخص لآخر، بل من بلد لآخر⁽³⁾.

¹) I. F. C. Hecker: Ibid.,p.528.

²) Roger French: Canonical Medicine: Gentile Da Foligno And Scholasticism In The Light Of Nature Essays In The History And Philosophy Of Science Presented To A.C. Crombie, Edited By I.D. North And I.1. Roche, Lancaster,Boston,1985,p. 21-31.

³) Karl Sudhoff, "Pestschriften aus den ersten 150 Jahren nach der Epidemie des 'schwarzen Todes' 1348," Archiv fur Geschichte der Medizin, 1911,p.43-44; Anna Montgomery Campbell: The black death,p.38-39.

وقد نشر المؤرخ أنا مونتغمري كامبل Anna Montgomery Campbell وثيقة لأساتذة الطب في جامعة مونبيلييه، لم يتعرضوا فيها لسبب ظهور الطاعون، لكنهم تحدثوا فيها عن أن العدوى تنتشر من شخص لآخر عند وجود تلوث في الهواء، ومن الممكن حسبما كتب أطباء كلية الطب في جامعة مونبيلييه، أن العدوى تنتقل إلى شخص سليم عن طريق النظر في عين المصاب، ومن هنا يمكن القول أن انتقالها في هذه الحالة أسرع بكثير من استنشاق الهواء⁽¹⁾.

وذكر الطبيب المعاصر شولياك أن السبب في الطاعون الأسود وانتشاره على هذا الشكل إنما يرجع لاقتتان الكواكب الثلاثة زحل والمشتري والمريخ في 24 مارس 1345م، لدرايته بعلم التنجيم، واتفق الناس في هذا على أن اقتتان الكواكب كان معصوماً بشكل لا يمكن التنبؤ به في الأحداث العظيمة : الثورات العظيمة للممالك، والأنبياء الجدد والأوبئة المدمرة، وغيرها من الأحداث التي تجلب الضيق والرعب على البشرية، ولا يوجد مؤلف طبي في أوروبا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، إلا ويذكرهم أنهم من بين الإنذارات العامة للأوبئة العظيمة⁽²⁾.

ومن أهم الأسباب التي أوردتها الطبيب الفرنسي شولياك أيضاً مستنداً في ذلك على رأي طبقة عريضة في المجتمع الأوربي أن غالبية سكان أوروبا اعتقدوا أن اليهود قاموا بتسميم مياه الشرب، وأن البواء انتشر من مكان إلى مكان، وبذلك سمم اليهود العالم، فقاموا بطردهم من المدن وتتبعوا بعضهم⁽³⁾.

وتدلل على كلام الطبيب شولياك رواية لشاهد عيان وهو المؤرخ جين دي فينيت Jean de Venette (ت771هـ / 1370م) الذي يذكر أن اليهود اتهموا بتسميم الآبار والمياه وإفساد الهواء، ومن هنا بدأ العالم كله في ذلك الوقت يتهمهم بشدة أنهم سبب الطاعون، فأقيمت المذابح لبعضهم، وقتل بعضهم على يد النصارى، حتى وصل الأمر لحرق اليهود في أحيائهم، ووصلت في بعض المناطق للتطهير العرقي، وفي بعضها تم طردهم، وأصدرت بعض الحكومات قراراً يحظر وجود أي يهودي لمدة مائتي عام في بلادهم، وحاولت بعض الحكومات الأخرى حماية اليهود من الهلاك على أيدي الناس، لكنهم فشلوا⁽⁴⁾.

¹) Anna Montgomery Campbell: The black death and men of learning، Columbia University Press. 1931.p.61-62.

²) Guy de Chauliac: La Grande Chirurgie de Guy de Chauliac.p.170-171 ; Walsh J.J.: Guy de Chauliac. Old-time makers of medicine.p. 284-286.

³) Guy de Chaulia: Op.Cit.p.171; Stephane Barry: La Peste noire dans l'Occident chrétien et musulman.p.464-465

⁴) Jean de Venette: The Chronicle Of Jean De Venette، translated by Jean Birdsall، ; edited. with an

وفي الحقيقة لم يوقع البابا كليمنت السادس أي لوم على اليهود ولم يوجه لهم اتهاماً مباشراً، وبراءة تهم كلية الطب في باريس، وذكرت في تقريرها أن اليهود أنفسهم لا يشربون غير المياه التي اتهموا بتسميمها، وأنهم عانوا من الموت الأسود مثلما عانى غيرهم، وأصدر مرسوماً يشملهم ورجال الدين برعايتهم.

ولقد ذكر شولياك أيضاً أن البعض اعتقد أن النبلاء في غرب أوروبا وراء هذا المرض وانتشاره، وأنهم هم من قاموا بتسميم العالم، لذلك تم تعيين حراس للمدن، حتى يمنعوا دخول أي غريب أي من المدن، وساد الهلع بين الناس، حتى أنهم كانوا يشكون في كل شخص يحمل مساحيق أو مواد قريبة منها، فيظنون أنها مواد سامة⁽¹⁾.

واستمراراً لسلسلة اتهام الآخر بالتسبب في العدوى، اتهم أغنياء أوروبا الفقراء بأنهم سبب العدوى وانتشارها، بل اتهموهم أنهم السبب في الطاعون منذ بدايته⁽²⁾.

أما عن الروايات المعاصرة للأحداث فقد ذكر المؤرخ والشاعر والأديب الإيطالي جيوفاني بوكاتشيو Giovanni Boccaccio (ت 776هـ / 1375م) الذي عاصر المرض، ووصفه في مقدمة أشهر أعماله الديكاميرون The Decameron الذي ألفه بين عامي 750-752هـ / 1349 و 1351م، وقد ذكر أن سبب الوباء الذي ضرب العالم كان خارج قدرات وعوامل البشر، فيرجعه صراحة إلى كائنات سماوية، وقد حلت هذه الكائنات السماوية بالأرض وأنزلت بها هذه العدوى، وأن هذا كله بسبب أفعال البشر، التي أغضبت الرب، فحل الغضب منه على غالبية البشر بسبب هذه الأفعال التي أغضبته⁽³⁾.

وفي وثيقة لويس سانكتوس Louis Sanctus ذكر أن سبب الطاعون حسب روايات التجار والحجاج القادمين من الشرق، أنه هبت بإحدى مقاطعات الهند عاصفة غير مسبوقة استمرت لثلاثة أيام، في اليوم الأول منها أمطرت السماء الضفادع والثعابين والسحالي والعقارب والعديد من الوحوش السامة من هذا النوع، وفي اليوم الثاني سمع صوت الرعد، ووميض البرق الممزوج بالأحجار (الثلجية) ذات الحجم الكبير التي سقطت على الأرض، مما أسفر عن مقتل جميع الأشخاص وبخاصة الرجال، وبدأت من السن الأكبر إلى الأقل، وفي اليوم الثالث سقطت النيران جنباً إلى جنب مع دخان نتن من السماء، وكان فيها الفناء، حيث قضت على كل شيء علي ما تبقى من الرجال والوحوش، واحترقت

introduction and notes, by Richard A. Newhall. Columbia University Press, 1953, p.51-53.

¹⁾ Guy de Chaulia: Op.Cit.p.171

²⁾ Jean-Noël Biraben: Op.Cit.,p.508.

³⁾ الديكاميرون، جيوفاني بوكاتشو، ترجمة صالح عثمان، دار المدى للثقافة، سوريا، دمشق، 2006 م، ص 41 - 4

المدن والقلاع ونتيجة تلوث الأرض من تلك العدوى، انتقلت منها لمناطق أخرى⁽¹⁾.

وذكر المؤرخ هيكز أن الروايات الأوروبية المعاصرة للطاعون تؤكد أن هناك أحداث كونية خاصة بالطبيعة، كانت قد سبقت الوباء بأعوام، وهي التي تسببت فيه، فيذكر أن زلزال كان قد وقع في مناطق من الصين، أدى إلى تغيرات في الجو وتلوث الهواء، وتأثرت الحياة النباتية والحيوانية، وأخذ الناس والحيوانات يموتون، حيث ترتب على هذه الأحداث جفاف رهيب، مصحوباً بالمجاعة، وبخاصة في الريف، على نهري كيانغ وهواي Kiang and Hoai بالصين، أعقب ذلك سيول عنيفة وأمطار، ومات في الفيضانات في العاصمة الصينية كينج ساي Kingsai وحدها حوالي أربعمئة ألف نسمة وبعدها حدث جفاف، وتكررت هذه الزلازل والعواصف في السنوات التالية حتى عم الجفاف بصورة مخيفة وفي عام 1347م ترتب على ذلك كله ظهور الطاعون⁽²⁾.

ومن حينها بدأ المرض ينتشر في بقع واسعة من الأرض، وتذكر الروايات المعاصرة أنه في عام 1347م ظهر ضبابٌ نتجَّ جاء من الشرق غطى سماء أجزاء كبيرة من أوروبا وشوهد في ألمانيا وإيطاليا، علاوة على انتشار أسراب الجراد، التي قتلت جميعاً بسبب إعصار هب من البحر، وشوهدت ميتة بأطنان على الشاطئ، ونتج عن ذلك كله هواء ضار⁽³⁾.

ولا يمكن أن نغفل عبارة هنا ذكرها الراهب ميشيل دي بيزا في حوارياته بخصوص السبب في انتشار الوباء وسط التجار الجنوبيين، وهو يرجع إلى غضب الرب عليهم، والغريب أنه ذكر أن هذا الغضب مرجعه إلى أفعالهم ".. غضب ربنا الذي نزل عليهم بسبب أفعالهم.. ولا نعرف السبب الحقيقي الذي كان يقصده في كلمة أفعالهم، لكن من المحتمل أنها أمور كانت ترتبط بالعمليات التجارية الجنوبية التي لم تكن مدن كثيرة ترضى عنها مثل بيزا وجنوة، أو ربما قصد المعاصي التي كان يرتكبها البشر في حق الرب، وبخاصة أنه كان رجل دين، ويرى أن في ذلك جلباً لغضب الرب⁽⁴⁾.
 ومما سبق يتضح أن أغلب الآراء الأوروبية المعاصرة تناولت الطاعون الأسود تحدثت عن أن أسبابه في أغلبها ناتج من الفلك والتنجيم.

أما عن موقف البابوية من تلك الروايات فقد رفضت رواية قيام اليهود بتسميم المياه، ومالت إلى الرأي الذي يقول بان الوباء هو بسبب غضب الرب من أعمال البشر التي زادت الشرور فيها، ومن ثم حل عليهم غضبه رداً على ذلك، وقد انسحب الموقف نفسه على الأساقفة في أنحاء أوروبا فقد وقفوا عاجزين

¹) John Aberth: The Black Death,p.21-22.

²) I. F. C. Hecker: Ibid,p.28-32

³) I. F. C. Hecker: Ibid,p.28-34;.

⁴) John Aberth: The Black Death,p.29.

أمام هذا الوباء، ولم يكن لهم أي دور كغيرهم من القادة، فقد وقف الكل متجهماً، وتوفيت منهم أعداد كبيرة في هذا الوباء⁽¹⁾.

وتدلل على تلك الرواية رواية شاهد عيان هو المؤرخ الفرنسي دان فروازار Jean Froissant (ت 1405م) حيث يذكر أن التائبين كانوا يطوفون أنحاء ألمانيا، قادمين من خارجها، ليكفروا عن ذنوبهم، يرددون أغاني عن ميلاد يسوع وآلامه، وكان كل ذلك طلباً للشفاء، وإنهاءً للطاعون، وكانوا يجلدون أنفسهم بالسياط ذات المسامير الحديدية، حتى تسيل منهم الدماء، أما النساء فيأتين ويأخذن الدماء ويلطخن بها عيونهن ظناً منهن أن فيها الشفاء، وانتشرت هذه الحركة في مناطق كثيرة في أوروبا، وكانت نظرة الناس إليهم في درجة أعلى من رجال الدين بعد أن فشلت الكنيسة ورجالها عن القضاء على الطاعون، لذلك أصدر البابا كليمنت السادس مرسوماً يدينهم ويدعو لمطاردتهم أينما وجدوا⁽²⁾.

وقد ترددت على السنة شهود عيان معاصرين للطاعون أن من أسباب الطاعون، أن الطبيعة غضبت على البشر، فقد نزل نيزك ناري على الأرض، في الشرق، نشأ عنه أبخرة ضارة، أدت للمرض. ومن هنا لجأ الكثيرون من أبناء الغرب الأوربي للكنائس والأديرة، وقاموا بالصلوات والابتهالات في شكل صلوات خاصة أو قداس عام متضرعين إلى الرب أن يرفع عنهم وينجيهم من هذا الوباء⁽³⁾.

ثالثاً: أساليب انتشار الطاعون الأسود

اختلفت الآراء حول أساليب انتشار هذا المرض، أو بلد المنشأ له، وكيفية عبوره، وانتشاره في المدن الأوروبية في القرن الرابع عشر الميلادي، فقد جعلت بعض الآراء من آسيا الصغرى مهداً للمرض، ونقطة عبور له من الشرق إلى الغرب؛ وذلك بسبب سيطرة المغول على طريق (الحرير)⁽⁴⁾.

وانفجر الوباء من مدينة (كافا) وهي محطة تجارية (مستعمرة جنوبية) تقع في شبه جزيرة القرم

¹ (الوباء الأسود في عالم القرن الرابع عشر، خوليو فالديونوب بارك، ترجمة إسحق عبيد تاوضروس، ملقئ حول ابن خلدون، البحر المتوسط في القرن الرابع عشر، قيام وسقوط إمبراطوريات، معرض في القصر الملكي في إشبيلية، مايو سبتمبر، 2006، ص 255 - 256)

²) Mezeray Histoire de France، Tom. II. Paris:1685. P. 418..

³) Jean Froissant: Chronicles.ed. Brereton، Geoffrey، Baltimore:Penguin Books 1968,p.111-113.

⁴ (في: ثلاث رسائل أندلسية في الطاعون الجارف (749هـ / 1348م)، لسان الدين محمد بن عبد الله الغرناطي بن الخطيب تحقيق: محمد حسن، سلسلة التاريخ بيت الحكمة، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، 2013، ص49.

وعندما قام المغول بحصارها هلك العديد منهم، الأمر الذي أجبرهم على الانسحاب بعد تخلصهم من الجثث الرطبة والدافئة عن طريق قذفها داخل أسوار المدينة؛ مما سبب انتشار المرض في المنطقة⁽¹⁾. وقد ذكر أن التجار الجنوبيين أصيبوا بالمرض أثناء مخالطتهم المغول المصابين به في سنة 1347م في مدينة كافا؛ ليتوجهوا به نحو إيطاليا بعد أن أبحروا من ميناء "كريميا" على البحر الأسود⁽²⁾. ومن هذا العرض يتضح لنا أن موطن المرض الأقرب هو آسيا الصغرى، ومنها عبر إلى أوروبا الغربية؛ إذ تضافرت العوامل المذكورة مع السبب الرئيس لحدوث المرض، كما أثبتته الطب الحديث بأن بعض البكتيريا العنصوية المسببة له قد التصقت بخراجات الطعام الخاصة بالجنود المغول، وخاصة أن هذه البكتيريا تتخذ من الحبوب تحديداً (القمح) مكاناً للتكاثر، فضلاً عن كون صوامع القمح ومخازن الغلال بيئة ملائمة لتعايش الفئران والجرذان السوداء الناقلة لهذا المرض⁽³⁾، وبذلك انتقل المرض إلى التجار الموجودين في المحطة، بالإضافة إلى اختباء بعض الفئران والجرذان في بضائع المسافرين المخزنة على أرصفة الموانئ⁽⁴⁾.

وقد ذكر "ميشيل دي بياز" أن الجنوية قد حملوا هذا المرض في عظامهم وكان الوباء شديد العدوى، لدرجة أن من يتحدث مع هؤلاء الجنود المصابين يصاب بالعدوى، ولقد كان هذا الوباء شديد الفتك بالبشر⁽⁵⁾.

وحمل الجنوية الوباء، أثناء عودتها إلى إيطاليا، ليبدأ المرض في غضون أشهر يستفحل أمره، وينتشر بسرعة في المدن الأوروبية بداية من جزيرة صقلية وجزر سردينيا وكورسيكا، ثم فرنسا وإنجلترا والإمبراطورية الألمانية وصولاً إلى ممالك أرغون وقشتالة في شبه الجزيرة الأيبيرية؛ وثم إلى الجزر الأسكندنافية وروسيا، حيث استأنف نشاطه في بداية فصل الربيع، بعد أن ظل ساكناً طيلة فصل الشتاء؛ بسبب شدة البرودة⁽⁶⁾.

وعندما وصل هذا الوباء إلى غرب أوروبا وانتشر فيها أهلك أعداداً من سكانها، الأمر، الذي نتج عنه حدوث موت جماعي في المناطق، حيث ذكر لنا الكاتب (جون) فرواساو حجم الكارثة التي حلت بالغرب الأوروبي بقوله: "لقد ظهر مرض يُعرف باسم الوباء، وانتشر في كل أنحاء العالم وأهلك

¹ (الموت الأسود، جوزيف بيرن، ترجمة: عمر سعيد الأيوب، أبوظبي، هيئة أبوظبي للسياحة، 2013، ص25.

² (عودة الموت الأسود أخطر قاتل على مرّ العصور، سوزان سكوت، كريستوفر دنكان، ترجمة: نفايقة جرس حنا، مراجعة: هان سليمان، المملكة المتحدة، مؤسسة الهنداوي، 2017، ص254.

³ (الأوبئة والتاريخ والمرض والقوة والإمبريالية، شلدون واتس، ترجمة: أحمد عبد الجواد، القاهرة، المركز القومي للترجمة، 2010، ص72.

⁴ (الموت الأسود، جوزيف بيرن، مرجع سابق ص30

⁵ (الموت الأسود أخطر قاتل على مرّ العصور، سوزان سكوت، مرجع سابق، ص26.

⁶ (يتّريخ أوروبا في العصور الوسطى، موريس بيشوب، ترجمة: عليّ السيّد عليّ، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، 2004، ص353.

ثلث البشرية" وكذلك تطالعنا حولية البابوية في أفنيون أنه: " لم تعرف البشرية في تاريخها مثل هذا الوباء (البلاء)... وإن الأحياء لم يعودوا كافيين لدفن الأعداد المهولة من الموتى " وقد وضحت لنا الإحصائيات التي أجراها المؤرخ (ج.س.رسل) حجم الكارثة أيضاً من بواسطة وضع دراسة لبيان عدد الوفيات؛ فقد وجد أن ما بين 20% إلى 25% من سكان إنجلترا هلكوا بسبب هذا الوباء (1) أما ألمانيا فقد بلغت النسبة 50% من سكانها، في حين أن فرنسا هلك من سكانها ما يقارب من 25% بين عامي 1348-1349م، وفقدت نابولي ما بين ثلث وخمس سكانها، أما إسبانيا فقد هلك ملك قشتالة وليون (ألفونسو الحادي عشر) بسبب هذا الوباء، وهلك في إقليم جليقة ما يقارب من ثلثي ثلثي سكانه من رجال الدين وعلمانيين (2).

مما سبق يتضح أن الطاعون أساساً مرض القوارض ويبقى ويستمر بينها بصورة متوطنة أحياناً يصل إلى حد الوباء بينها بحيث يقتل الكثير منها، وينتقل بين هذه القوارض بواسطة البراغيث التي تعيش عليها، وإن أوبئة الطاعون حدثت عندما كانت حالات من وصول براغيث القوارض البرية إلى القوارض الداجنة في جوف ومحيطات المدن وعندها يصل إلى الإنسان القريب منها، وبمجرد انتقال الطاعون إلى الحيوانات التي كانت على اتصال وثيق مع البشر وانتشر بين البشر أنفسهم على طول طرق التجارة القائمة ولقد سار انتشار المرض والتجارة جنباً إلى جنب وكان التجار هم من أهم ناقلي المرض بين المدن، ولكن قبل أن تدخل سفن الموت إلى مواني أوروبا كان العديد من الأوربيين قد سمعوا شائعات عن وباء عظيم كان يشق طريقاً مميتاً عبر طرق التجارة في الشرقيين الأدنى والأقصى .

رابعاً: موقف الكنيسة من الطاعون الأسود ونظرة المجتمع لها

يوجد مجموعة من الإحصائيات في أسقفية (لنكلن) و (يورك) التي تسجل من هلك بها من رجال الدين خلال الموت الأسود؛ فقد بدأ الطاعون في لنكلن في فبراير 1349م، ولم يلبث أن عصفت في أبريل التالي بتسعة من مقرات الأسقفية العظمى بـ (هنتجودون Huntingdon)، وهلك 35 بالمائة من رجال الدين، أما في (يورك) مات 40 بالمائة من كهنتها، وربما ساعد على ذلك مناخها البارد وبما أن الكهنة هم النخبة المتعلمة بين الشعب، بالتالي فإن نسبة الوفيات العالية بين الكهنة تجعلنا نستنتج أنها مرتفعة أيضاً بين العامة، وربما كانت تفوقهم (3).

¹ (الموت الأسود، جوزيف بيرن، مرجع سابق ص30

² (الوباء الأسود في عالم القرن الرابع عشر، خوليو باروك، "ترجمة: إسحاق عبيد، في: ابن خلدون: البحر المتوسط في القرن الرابع عشر: قيام وسقوط إمبراطوريات، معرض بالقصر الملكي في إشبيلية، مايو: 2006 -دراسات: ماريا خيسوس فيجيروا، تقديم: إسماعيل سراج الدين، الاسكندرية، مكتبة الاسكندرية، ص256-257.

³) Thompson.H، The Pestilences of the Fourteenth Century in the Diocese of York، Archaeological Journal، Volume 71، Issue 1، 1914،pp. 97-154

كانت (ونشستر) في جنوب إنجلترا تضم بين خمسة آلاف إلى ثمانية آلاف من السكان، وكانت من أغنى مدن المملكة، ولكن الموت الأسود جعل مدفن كنيسيتها ممتلئاً بالموتى؛ مما أدى إلى إضافة مدفن آخر ولكن بعد وقت قصير اتضح أنه لم يعد كافٍ لاستيعاب المزيد، ولم يلبث أن سيطر الرعب على الأسقف، خاصة بعد قيام أهل المدينة بدفن موتاهم في حفر خارج أسوارها، وسرعان ما تناقصت أعداد سكانها إلى مستوى يقل عن نصف ما كان عليه قبل الطاعون؛ حتى أنه تحول جزء من (الهاي ستريت High Street وهو أهم شارع تجاري بالمدينة إلى مدفن، وهكذا خلف الموت الأسود في (ونشستر) ذكريات لا تمحى، فتوضح سجلات الخاصة بجباية (ضريبة الرأس) عام 1377م أن سكان (ونشستر) قد انحدر عددهم إلى أقل من ثلاثة آلاف. وفي (فاردهام هندردز Vardham Henders) خلال عام 1348م مات من بين (740) من العائلات الكبيرة (١٨٥) عائلة؛ أي حوالي ربعهم ولحق بهم في نهاية العام (101) آخرون؛ لترتفع نسبة الوفيات إلى 39% (1).

وفي العاصمة (لندن) التي وصل لها الطاعون في أواخر سبتمبر 1348 م وخلال شهرين (2) من فبراير إلى أبريل تم دفن ألفين من السكان في مقبرة واحدة، لكن الأسوأ لم يكن قد أتى بعد، حيث ورد في سجلات المدينة أنه ما بين يونيو إلى سبتمبر كان متوسط الوفيات (290) يومياً، وبين (7) مناصب كنسية كبيرة أصبح ثلاثة منها فارغة؛ فقد مات (جون ستراتفورد Stratford John) رئيس أساقفة كانتربيري في مايو 1348م، ولم يلبث أن لحق به خليفته (جون أوفورد John Offord) بعد عام، وذلك قبل أن يتقلد مهام منصبه، ثم مات من تلامه وهو توماس براد واردين Thomas Bradwardine) وهو أحد مشاهير (أكسفورد) في أغسطس، وأصبح عدد الوفيات يتراوح بين 35 % إلى 40%. وذكر المعاصرون للموت الأسود أنه أهلك بين مايو وسبتمبر عام 1349م ما يقدر بثلاث سكان إيست إنجليا East anglia حيث وصلت خسائر ثلاث قرى في هذا الإقليم من 35 و 57 % إلى 70 (3).

وحل خراب هائل بكامبردج (Cambridge) بين أبريل وأغسطس، حيث مات 15 طالباً من بين 40 طالباً مقيماً بها، وفي نورويتش (Norwich) التي كان عدد سكانها في 1348م بين 10 إلى 12 ألفاً، بعد أن أصيبت بالموت الأسود في يناير 1348م، هلك نصف كهنتها وعلمانيها تقريباً (3)، وتوقفت أربع من كنائسها الإبروشية عن أداء مهامها، ولم يعد يوجد بها عدد كافٍ من القساوسة لإقامة

¹) Coulton. G. G. The black death, London: Ernest Benn, 1929. p. 496

²) Thrupp, S. L., the Merchant Class of Medieval London, 1300–1500, University of Michigan Press, 1989. pp. 41–52

³) Gottfried.R, Epidemic Disease in Fifteenth Century England: The Medical Response and the Demographic Consequences, Leicester University Press, 1978, pp. 142–150

القداسات، أو من الجمهور ليحضر وينصت بخشوع إليهم⁽¹⁾.

وكان النقص شديداً في أعداد الكهنة، حتى أنه حين حاول أسقفها أن يضع حداً لهذا فأسس (الترينتي هول Trinity Hall) في جامعة (كامبردج) لأعداد المزيد من الكهنة⁽²⁾، وفي بيرري سانت إدموندز (Burst Edmunds) والتي كان عدد سكانها 7 آلاف، وتعد من أكثر المدن ازدهاراً وصاحبة اقتصاد تجاري وصناعي متنوع، ويتضح من سجلات ديرها - والذي يعد من أغنى أديرة أوروبا - ما خلفه الطاعون من خراب بعد أن وصل إليها⁽³⁾.

ففي 19 من يناير 1351م صدر إذن من البابا كليمنت السادس) لمقدم ديرها وهو وليم أوف برنهام (William of Bernham) برسامة عشرة من الرهبان ممن هم دون سن الـ ٢٥ ليصبحوا قساوسة؛ ذلك لأن نسبة الوفيات العالية التي تبعت الموت الأسود أدت إلى نقص حاد في أعداد الرهبان فيتيبين من السجل أن أربعين راهباً - أي ما يعادل نصف العدد الإجمالي للرهبان - قد أهلكهم الطاعون. ويستدل من ضريبة الرأس عام 1377م على أن إجمالي عدد السكان كان قرابة أربعة آلاف ومائتين، بمعنى أنهم تناقصوا بمقدار أربعين بالمائة، أما فيما يختص بالقرى المحيطة بالدير والتي كانت تعتمد في معاشها على أسواق (بيرري) وصل عدد الضحايا إلى 60٪، وهناك عاملان رئيسيان ساعدوا على زيادة أعداد الوفيات، هما: أولاً دخول الوباء للإقليم من نقاط متعددة؛ مما أتاح فرصة انتشاره بشكل أوسع. وثانياً المناخ البارد والرطب الذي كان بيئة خصبة للمشكلات الرئوية، والتي يمكن أن تتطور لتصبح طاعوناً رئوياً مميتاً، ووصلت نسبة الوفيات لنسبة عالية في (ليسستر) و (Leicestershire) ليستر (شاير)، فكانت النسبة عند الكهنة في نيوار Newar 48٪، نوتنجهامشاير (Nottinghamshire) 57٪، وفي ستاو (Staw) و (لنكلنشاير Lincolnshire) 56٪، في (لنكلن) ٥٨٪⁽⁴⁾.

وكانت (رثين (Ruthin) واحدة من الأماكن القليلة في (ويلز) التي كشفت لنا ملفات محاكمها أن الحياة كانت تسير خلال أبريل ومايو 1349م في مسارها الطبيعي، ولا توجد أية سجلات

1) Gasquet.F.A، The Great Pestilence (A.D. 1348-9)، Now Commonly Known as The Black Death، 1893، pp. 194-219

2) Crawley. C. W، Trinity Hall، the History of a Cambridge College 1350-1975، The Historical Journal، Volume 21، Issue 3، September 1978، pp. 751 - 752،

3) Gottfried.R، Bury St. Edmunds and the Urban Crisis: 1290-1539، Princeton University Press. 1982. pp.46-72.

4) Thompson.A، Registers of John Gynewell، Bishop of Lincoln، for the years 1347- 1350، Archaeological journal، Vol 68، 1911،pp. 300-360

عن وجود موتى، حتى بداية الأسبوع الثاني من يوليو مات 7 أشخاص، وفي نهاية الشهر كان ٧٧ على الأقل أي أكثر من ثلث عدد السكان في (ويلز) قد هلكوا. أما في (أيرلندا) كانت الأوضاع أسوأ؛ ففي صيف 1349م هلك كبير أساقفة (دبلن Dublin)، وهو الشخصية الرئيسية في (أيرلندا) كلها، وليس في إمكاننا تقدير العدد الإجمالي للموتى بسبب ما يشوب المصادر الأيرلندية من بعثرة، ومع ذلك تكون لدينا انطباع خلفه لنا الراهب الفرانسيسكاني (جون كلين أوف كيلكني John Clyn of Kilkenny) عن الفظائع التي صنعها الموت الأسود في البلاد فيقول: "أبدو كما لو كنت من الأموات، أنتظر أن يأتيني الموت، فأسجل بصدق ما وصل إلى أذني وتحققت منه، وحيث إنه ربما لا تموت الكتابة بموت الكاتب، ولا العمل بموت العامل أضيف بدوري جلدًا من ورق، ربما يقدر له البقاء، وإذا تصادف أن عاش أحدهم بعد تلك الجائحة أو نجا أحد أبناء آدم؛ فربما واصل كتابة هذا العمل الذي بدأته، وهنا يبدو أن المؤلف قد مات" (1).

استطاع الطاعون أن يدمر الأسر، ويقضي على أعضائها، ويشوّه بناها ويلغي وظائفها؛ حيث تغيرت الطقوس والعادات التي كانت تتبعها الأسر عند وفاة أحد أفرادها كالجنازة والموائد الجنائزية. فمع انتشار الطاعون تغيرت الأمور بشكل تدريجي حتى سقطت هذه المظاهر الطقوسية ولم يتبق منها إلا عمل ناقل الجثث، وتطورت الأسر لتصبح أصغر عدداً، بعد أن كانت تضم الأبناء والأبناء بالتبني وأبناء الأخوة وأبناء الأخوة اليتامى، أو الأحفاد، أو المتدربين على المهنة أو الخدم أو العبيد؛ حيث كانت الأسر الغنية التي لديها المكان والموارد تميل إلى أن تكون أكبر من الأسر الفقيرة، لكن كان على أسر الفلاحين أيضاً أن تؤوي أعضاء العائلة المترملين أو اليتامى، وغير القادرين على العمل لتقدم السن أو تدهور الوضع الصحي، والمسافرين والمشردين واللاجئين (2).

وعندما يهدد الطاعون أسرة أو يهاجمها، فإنه يصيب عدد كبير من أفرادها، ونجد أن المجتمع الإنجليزي قد فرض نظاماً على الأسرة من الأنشطة والمسؤوليات فكانت النساء من مهامهن أن يرعين المريض والمحضر، ويعددن المتوفى للدفن، بينما قام الرجال بالأعمال التي تتعلق بالعالم الخارجي بعيداً عن المنزل (3).

وأثناء العصور الوسطى كان هناك ارتفاع في الوفيات بين الأطفال؛ فأمراض الطفولة والأوبئة والحوادث وسوء التغذية والمياه الرديئة وقتل الأطفال عمداً فعلت فعلها، ومن الصعب على وجه الخصوص الحصول على بيانات عن وفيات الأطفال الناتجة عن الطاعون. غير أن النماذج الحديثة للطاعون الدبلي

¹) Clyn.F.J., Annalium Hiberniae Chronicon: (Dublin: Irish Archeological Society, 1849), p. 37

² (الموت الأسود، جوزيف بيرن، مرجع سابق، ص106.

³) Zuber.C. K, Plague and Family Life, In (Jones.M, The New Cambridge Medieval History), ambridge University Press: 2008, pp. 124 – 154

والأدلة القصصية في مصادر القرون الوسطى اللاحقة تدفع المرء إلى توقع ارتفاع الوفيات بين الرضع والأطفال⁽¹⁾.

وكانت الأسرة تعمل داخل نسيج مجتمعي تحصل منه على كثير من المعلومات وتؤدي واجباتها وفقاً لقواعده، وربما يؤثر الأقارب وزملاء النقابة والأصدقاء والأطباء والكنيسة والنظام القانوني التقليدي والسلطات المدنية أو القروية أو الإقطاعية في تعليم الأسرة عن كيفية التعامل مع الطاعون ورد الفعل تجاهه⁽²⁾.

وكان للتقاليد العائلية والمكانة الاجتماعية والموارد الاقتصادية والخبرات الشخصية دورها أيضاً، فقد تستخدم عائلة غنية النقود وشبكة أصدقائها في المدن الأخرى للهرب، تاركة كل شيء وراءها، وربما تختار أخرى لديها الموارد نفسها البقاء لحماية أصولها، وربما تقوم ثالثة ببقاء رأس العائلة في البلدة وينتقل من يعلمهم إلى مكان آخر لحمايته. وفي حال الهرب كان يتم ترك خدم العائلة والمتمهنون ومن هم عائلة عليها ليتدبروا أمورهم بأنفسهم، وأحياناً كان الخدم الموثوق بهم يُتركون للعناية بالمنزل والأصول الأخرى. ويقال أن في زمن الطاعون كانت مدينة (لندن) قد أصبحت مدينة للخدم، وغالباً كان الخدم وغيرهم من الذين يتصلون بالعالم الخارجي من دون رقابة تمنحهم الأسر غرقاً في المنزل بعيدة عن غرفهم. حيث كان الخدم هم أول من يمرض في العائلات الكبيرة. وربما تقدم الرعاية لأفراد الأسرة المصابين ولكن الخدم ومن يماثلهم يُرسلون إلى مبنى خارجي أو إلى مقر ريفي ولا يحصلون على رعاية حتى وإن كانت متدنية. وكان الزوج الذي يبعد عن أسرته يعيش في خوف دائم من ألا يراها ثانية ولا شك في أن أسرته كانت تخشى الأمر نفسه؛ ولأن السلطات في أماكن عديدة في (لندن) كانت تحتجز عائلات بأكملها في منازلها عندما يمرض أحد أفرادها بالطاعون هذا ما دفع الأسر إلى إخفاء خبر المصابين لديها بالطاعون عن السلطات⁽³⁾.

لقد انتشر الموت عادة داخل الأسر بين جميع الفئات العمرية، فكانت الأمهات والوليدون تتوفى غالباً أثناء الولادة، وكان يفقد كثير من الأطفال بسبب الحوادث والأمراض، وسقط كثير من البالغون ضحايا العنف بسبب شرب الكحول والفقر، وكان يموت المسنون عادة في فراشهم، ولقد اكتسحت الحرب والمجاعة والمرض البلديات والقرى وتقتل من دون تمييز، لذا كانت العظاظ الكنسية والفرن الديني تردّد رسالة تفيد بأن الحياة ما هي إلا ممر أو مقدمة للموت. وكانت الأسر تقف في أغلب الوقت عاجزة أمام معاناة بعض أفرادها من الحمى والذهيان والمشاكل المعوية المعوية، والأطراف المكسورة،

¹) Giladi.A, Mortality enfant and child, journal of the economic and social history of the orient Vol 32, 1989, PP. 121 – 152

²) Zuber.C. K, Plague and Family Life, 2008, pp. 124 – 154

³ (الموت الأسود، جوزيف بيرن، مرجع سابق، ص110-112.

والتسمم، والجذري، والأمراض الزهرية، ومشاكل الحمل والأمراض المزمنة، ونادراً ما كان الأطباء والجراحون والصيداليد يجدون علاجاً، حتى في تسكين الألم. وكان لكل أبرشية مقبرة يمر بها جميع المنتمين للأبرشية كل يوم أحد حيث كان الموت في الغالب أمراً معتاداً حتى في الأسر الثرية وفي كل الطبقات بلا استثناء⁽¹⁾.

وفي الطقوس الأخيرة قبل الوفاة كان يأتي لمنزل الأسرة الموثق الذي يسجل الشهادات الأخيرة والوصايا الخاصة بالنساء والرجال، وينظم الإجراءات القانونية للتعامل مع أملاك المتوفى ومن يعلمهم قبل الوفاة، ويأتي أيضاً رجل الدين الزائر ويقضي ساعات المحتضر، ويقدم المواساة الروحانية للعائلة بأكملها، ويكون في الغالب كاهن أبرشية العائلة، أو قس مفضل يمثل الكنيسة، ويظهر رسمياً مرتدياً ما يدل على منصبه الديني، ويحمل الماء المقدس ووعاء صغيراً مبطناً بالذهب يحفظ فيه القربان المقدس، ويرافقه رجل دين يحمل شمعة وجرساً يدوياً وكتاب نصوص الطقوس، ويرش الماء المقدس حول غرفة المريض باعتبارها وقاية روحانية، ثم يقوم بسؤال المريض عن وصيته وهو يحتضر، ثم يقدم له الصليب ليقبله، ويمسح الكاهن المحتضر بزيت زيتون خاص، وإذا كان المحتضر واعياً يقدم الاعتراف الأخير ويحصل على الغفران من الكاهن، وبعد إعداد المريض للمناولة، يقدم الكاهن القربان المقدس وإذا كان الأمر ملائماً يبقى لأداء صلوات معروفة للروح التي ستفارق الحياة عما قريب، ويطلب رحمة الرب للمذنب ويسأل القديسين أن يصلوا لصالحه، ويقرع الجرس لحظة الوفاة ليعلم الجميع بحدوثها، وكانت تعمل الفتيات الكبيرات والنساء في العائلة بمثابة ممرضات للمريض، فيعتين بمختلف احتياجاته. وكان إعداد المتوفى للدفن من مسؤوليات المرأة: حيث تقوم نساء الأسرة بنزع الثياب عن المتوفى وغسله ومحاولة وضعه في موضع ملائم قبل تبيس الجثة، وكن يحلقن لحى الرجال ويقلمن أظافر كلا الجنسين، وربما يفركن الجسم بدهن عطري لموازنة الرائحة الكريهة للتعفن، وإذا جرت عادة عرض الجثمان في المنزل، فعلى النساء عندئذ أن يعددن الغرفة العامة، وكان الرجال يتعاملون مع ترتيبات الجنازة والدفن⁽²⁾، وفي أعقاب الموكب إلى المقبرة، تتشارك العائلة والأصدقاء المقربون الطعام والجمعة أو الخمر على المائدة الجنائزية، وتكون أحياناً في الشارع أمام البيت⁽³⁾.

ولكن في أوقات الطاعون، منعت هذه الطقوس وصارت العائلات تقدم للمعزين نقوداً ينفقونها

¹) Holt, J, Presidential Address: Feudal Society and the Family in Early Medieval England: IV. The Heiress and the Alien." Cambridge University Press: 12 February 2009, PP. 1-28.

²) Platter, F, Beloved Son Felix: The Journal of Felix Platter a Medical Student in Montpellier in the Sixteenth Century. Frederick Muller, London, England, 1961, pp. 189- 191

³ الموت الأسود، جوزيف بيرن، مرجع سابق، ص123..

في الحانات المحلية أو باعتبارها تذكارات، وبعد وصول الطاعون للندن أصبح رب الأسرة يركع مع أسرته في مكان ملائم من بيته، بعد أن يتعطر بالبخور أو العرعر أو إكليل الجبل أو ماء الورد والخل ويدعون بقلب خاشع بالنجاة والمغفرة والعون من الرب ويرد الخدم والأسرة على كل دعاء بأمين⁽¹⁾.

ويتبع هذه الأدعية بسلسلة من الصلوات، فمثل هذه الطقوس المنتظمة تساعد في المحافظة على الروابط التي تبقى على تماسك الأسر والمجتمعات، ولكن بعد الموت الأسود اختفت مثل هذه العظات والدعوات القصيرة وانتشر الموت والخوف، ورأى الجميع أن التوبة وتغيير نمط الحياة والابتعاد عن الخطايا ضروري لنيل رضا الرب والنجاة من الطاعون، وبما أن العالم كله خاضع لمشيئة الرب، فالطاعون ناجم عن إرادته؛ لذا استمر بعض الكاثوليك يعتمدون على الاحتفالات الدينية والصلاة والصوم والتوسل للقديسين، وتسيير المواكب والقيام بالأعمال الصالحة لتقليل من غضب الرب. وعلى الجانب الآخر لم يفعل من يؤمنون بالقدر أي شيء في بعض الأحيان لا الصلاة أو الهرب أو العلاج لأن كل شيء بين يدي الرب ومقدر بمشيئته التي لا تتغير⁽²⁾.

ولقد أثر الطاعون على عادات الجنائز؛ فكانت الأم في الغالب تكفن أبنها وتضعه في التابوت، أو يفعل الزوج الأمر نفسه لزوجته، حيث يرفض الجميع لمس جسد الميت، ولا تقام الصلاة أو ينفخ البوق أو يضرب الجرس ولا يحضر الأصدقاء والجيران إلى الجنازة، ولا يقام القداس. وكان يدفع النبلاء للفقراء والبؤساء لحمل الجثة للدفن، حيث لا يجروا أقارب المتوفى على حضور الجنازة خوفاً من أن يصيبهم المرض ويقام قداس قصير⁽³⁾.

ولقد دونت السجلات التاريخية هذه التغيرات في العادات والطقوس للعديد من المدن، فنجد القوانين التي فرضتها حكومة المدينة في ما يتعلق بالجنائزات، ففي البداية أمرت السلطات بدفن ضحايا الطاعون في تابوت أو صندوق فور وفاتهم في الليل أو النهار، بصرف النظر عن مكانتهم الاجتماعية واقتصر قرع الأجراس والقدايس على أيام الأحاد، ومنع القانون التجمعات بعد القداس في البيت أو الشارع لأن الوباء يمكن أن ينتشر عبرها، ومنعت باقي العادات المألوفة الأخرى نتيجة لارتفاع الوفيات، وفرار الناس، وامتلاء المدافن. وبحلول سبتمبر قام مجلس المدينة بمنع ارتداء الأسود أو قرع الأجراس أو استخدام بساط الرحمة في قدايس الجنائزات، ولم يعد يُسمح إلا لشخصين من العائلة بحضور القداس

¹) Mullett.C. F, the Bubonic Plague and England, University of Kentucky Press, 1956, p.82.

²) Aberth.J, The Black Death,The Great Mortality of 1348-1350: A Brief History with Documents, Palgrave Macmillan New York, 30 April 2016,P.109-110

³) Cohn, S. Plague violence and abandonment from the Black Death to the early modern period. Annales de démographie historique. (2017), PP.39-61.

أو الدفن⁽¹⁾.

وتوقف الناس - من تلقاء أنفسهم أو بضغط من السلطات - عن التجمع في المواكب والقداديس واقتصرت تجمعاتهم على الضروريات الأساسية لنقل الجثمان إلى الكنيسة والقبر، والصلاة لراحة نفس الميت وكانت الخسائر في الأرواح هائلة، ولولا التوقف عن هذه الطقوس والمراسيم التقليدية لأصبحت المدن مدناً للموتى. على سبيل المثال، في سنة 1348-1349م انخفض عدد بائعي التوابل في (لندن) من 12 إلى 35 عضواً بسبب الطاعون. وكما جرت العادة اجتمع الجميع في الجنازات الأربع الأولى لكنهم توقفوا عن ذلك في ما بعد بسبب ارتفاع عدد الوفيات⁽²⁾.

لقد ترتب على هذا الارتفاع في نسبة الوفيات شراء العديد من الأبرشيات لمداخن إضافية مجاورة لباحة كنيستها، وفي يوليو وأغسطس 1349م، أضافت 11 أبرشية في (يورك) بإنجلترا مزيداً من الأرض بعد تقديم التماس للأسقف للسماح لها بذلك. وكانت مقابر الطاعون على مثل المقابر الأخرى مُسَجَّجة ومباركة، وفي الأوقات العادية كانت مقابر للطبقات الدنيا، وظهرت مقابر جديدة حول المدن الكبيرة في زمن الطاعون، في المناطق الكاثوليكية المرتبطة بكنيسة أو أخوية دينية؛ ولأن هذه المقابر كانت خاصة لدفن ضحايا الطاعون - والتي اعتُبرت مفسدة للهواء - فإنها غالباً ما تقع خارج حدود المدن معزولة عن المساكن الأخرى⁽³⁾.

واحتاجت (لندن) أماكن دفن إضافية في أثناء تفشي الطاعون؛ فقام (رالف ستراتفورد Ralph Stratford) أسقف لندن في سنة 1348م بشراء قطعة أرض وجعلها منطقة محرمة وأحاطها بسور من الطوب وخصصها لدفن الموتى، وبني عليها كنيسة صغيرة، وقام السير والتردي ماني (Walter de Manmy) - وهو فارس فلمنكي - ببناء مقبرة وكانت هذه المقبرة هي (مستشفى القديسة مريم St. Mary spital)، تقع عند تقاطع طريق (سبيتال Spittal) خارج (الدرسغيت) في وست سميثفيلد (West Smithfield)⁽⁴⁾.

وفي سنة 1371م، استوطن الرهبان الكارثوسيون Carthusians الكنيسة، وأنشأوا ديراً يدعى (شارترهاوس Charterhouse) وأخذوا يصلون للموتى، ويعتنون بالمقبرة الموجودة فيه، وفي سنة

¹) Horrox.R. The Black Death (Manchester Medieval Sources)، PP.23، 52-53.

²) Rowell. G، The liturgy of Christian burial : an introductory survey of the historical development of Christian burial rites، London : S.P.C.K for the Alcuin Club، 1977، PP.80- 82

³) Hawkins.D.The Black Death and the new London cemeteries of 1348، Antiquity، Vol 64، Issue 244، September 1990، pp. 637 - 642

⁴) Latham.R & Matthews.W. The Diary of Samuel Pepys، vol. VII (Berkeley: University of California Press، 2000)، pp.30-35.

1348م اشترى رجل الدين جون) كوري John Corey (قطعة أرض شرق (Smithfield سميتفيلد) قرب برج (لندن) وأحيطت هذه الأرض بجدار حجري وزودت بكنيسة صغيرة، وجعلها أسقف لندن مقبرة في سنة 1349م، وأصبح الدفن الجماعي في حفر كبير منتشراً أثناء الموت الأسود؛ حيث وجد علماء الآثار في موقعي (سميتفيلد) الشرقي والغربي أن الجثث دفنت بترتيب في خنادق طويلة، وكدست بعمق خمس طبقات بعضها فوق بعض، تفصل بينها رواسب من التراب. ولم تُفرّق بين الغني والفقير، والمذنب والقديس والمحبوب والمكروه، وكان عادة يتم جمع الموتى في عربات وعند امتلائها يتم إلقاء الجثث في الحفرة المفتوحة في مشهد مروّع يتنافى مع الإنسانية⁽¹⁾.

ويقدم مؤلف كتاب تاريخ روتشستر (Chronicle of Rochester) في إنجلترا عام 1346م وصفاً لما كان يحدث فيقول: "وا حسرتاه، أهلك الموت أعداد كبيرة من الجنسين، ولم يعد يوجد من يحمل جثث الموتى ودفنها، ولكن حمل الرجال والنساء صغارهم إلى الكنيسة على أكتافهم، وألقوا بهم في مقابر جماعية تفوح منها رائحة كريهة جداً تجعل من الصعب على أي كان عبور باحة الكنيسة". وكتب الإنجليزي (جورج ويذر George Weather) عن هول مشهد الحفرة في لندن قائلاً: يا إلهي يا له من مشهد، ويا لها من روائح قوية تتصاعد من بين الجثث الكريهة. توجد هنا وهناك كومة من الجماجم، تظهر جثة نصف مدفونة وخصلة من شعر امرأة، ووجه رجل ميت تكشف وأظهر مشهد مخيف⁽²⁾.

ولقد وصفت الحوليات التاريخية حاملي الجثث أنهم أصحاب قوة غير طبيعية؛ حيث تم اختيارهم لأداء أشنع الأعمال كل يوم بكفاءة وبلا مشاعر، بل وبكل قسوة تثير غثيان عامة الناس وتملأهم رعباً. فكانوا يحركون بأيديهم الموتى والمتعفين وهم يدخنون ويغنون ويضحكون مثل العتالين أو عمال تفريغ السفن. وفي سنة 1375م كلفتهم الحكومة بتطهير الشوارع وحلاقة لحى المتوفين والباسهم الثياب، ونقل الجثث من مكانها إلى المقبرة بسرعة وكفاءة، وكانت هذه مهمتهم الرئيسية. وأثناء هذه الفوضى سعى حاملوا الجثث إلى الحصول على المال؛ ففتشوا صناديق الموتى وأخذوا ما يريدون وتعاملوا مع الناس بقسوة؛ وبسبب خطورة عملهم واجهوا الموت في كل مكان⁽³⁾.

كانت إقامة القداديس، وتقديم القرابين المقدس والصور والتمائيل والمواكب الخاصة، وقيام الناس بالتوبة عن خطاياهم من ردود الفعل الدينية الأولى لمواجهة الموت الأسود بعد انتشاره؛ لتجنب غضب

¹) Forrest. I, The Politics of Burial in Late Medieval Hereford, The English Historical Review, Vol 125, Issue 516, October 2010, PP .1110–1138.

²) Boccaccio.G, The Decameron, trans. by Mark Musa and Peter Bondanella, New American Library, 1982, p. 11

³) Britnell.R, The Black Death in English towns, Urban History 1 October 1994, PP.195– 210.

الرب، وكان في وسع الأساقفة منح إعفاءات، حيث صدر مرسوم شهير في العاشر من يناير عام 1349، منح الأسقف رالف شروزبري من باث وويلز في إنجلترا غفرانا غير مسبوق لأبناء رعيته للاعتراف أمام رجل عادي، حتى لو كانت امرأة، وفي زمن الطاعون، لأن العديد من الناس، كانوا، يموتون دون التوبة عن ذنوبهم⁽¹⁾.

وكان من يقوم بأعمال أو طقوس خيرية أو يتلو صلوات خاصة بنية دينية سليمة يُعفى من قضاء بعض الأيام في المعاناة بسبب الخطايا غير المعترف بها. وكان يبارك الأسقف عادة تربة المقبرة المسيحية وكانت المقابر الجديدة سواء أكانت مستقلة أم ملحقة بكنيسة، أم مستشفى أو مؤسسة أخرى، تتطلب إذنه ومباركته، وقام البابا بمباركة نهر الرون كي يتم التخلص من الجثث فيه في الظروف الخاصة⁽²⁾.

وكان رجال الدين وغالباً الإخوة الرهبان والراهبات، في الأوقات العادية وفي زمن الطاعون، يزورون المرضى ويساعدون المحتاجين، ويخدمون في المستشفيات والمؤسسات الأخرى التي تهتم بالمرضى والمسافرين، وكان الرهبان بمثابة مستمعين لاعترافات الناس ومرشدين روحانيين لهم، وغالباً ما استدعواهم عند اقتراب الموت. ولقد وضع رجال الدين في زمن الطاعون على خط النار مباشرة؛ حيث تعرضوا للعدوى من الطاعون سواء عن طريق البراغيث المنزلية أو بلغم الضحايا، وعلى نحو موثقي العقود والأطباء الذين يعملون على مقربة من الضحايا، تتوقع ارتفاع معدلات الوفيات في أوساط رجال الدين الذين يقومون بواجبهم⁽³⁾.

ويُعلق وليام دوهار William Mohar، بعد دراسته لسجلات الأساقفة، فيقول: "إن أسقفية (هيرفورد) بإنجلترا كان بها 160 أو حوالي 120 وفاة بسبب الطاعون من بين ما يزيد عن 300 خادم أبرشية فقدوا في سنة 1349م وتركوا وظائفهم فارغة وفي سنة واحدة. بين مارس 1349م وفبراير 1350م، توفى بسبب الطاعون 91 من 214، ومن بين المناصب الكنسية المأجورة التي يقوم ملك إنجلترا بملئها، والتي كان يبلغ عددها في المتوسط 100 وظيفة كل عام، زاد عددها في 1348م إلى 159 وظيفة وفي سنة 1349م وصلت إلى 899. وفي نوريتش ارتفع الرقم من 77 في المتوسط إلى 800، ومن 35 إلى 371 في (أكستر). وبلغ مجموع المناصب الكنسية المأجورة لدى الأسقف 413 منصباً، منها

¹) Aberth.J., The Black Death, The Great Mortality of 1348-1350: A Brief History with Documents. P.109-110

²) Horrox, Black Death, p. 26.

³) Aberth.J., The Black Death, The Great Mortality of 1348-1350: A Brief History with Documents. P.109-110

210 أصبحت فارغة بسبب الطاعون. وقد لزم 249 تعييناً للملأها بسبب وفاة العديد من المرشحين⁽¹⁾. ولقد أرهقت هذه الأعداد موارد الأسقف النموذجي وإدارييه؛ حيث فقد الأساقفة أنفسهم العديد من موظفيهم كما فقدوا أرواحهم أيضاً، فقد توفى ثلاثة من رؤساء أساقفة (كانتيري)، أهم أبرشيات إنجلترا، في خلال سنة أو أكثر قليلاً. فيذكر الكاتب (وليام دين William Dene) من أبرشية (روتشستر) الإنجليزية الصغيرة نسبياً أن أسقفه فقد أربعة كهنة، وخمسة نظار، وعشرة خدم منزليين وسبعة كتبة صغار، وستة حجاب، ولم يبق أحد في أي مكتب لخدمته⁽²⁾.

خامساً: الآثار الاجتماعية للطاعون الأسود

لقد ألقى الطاعون بظلاله على الاتجاهات الاجتماعية السائدة آنذاك فالأرض من حول الناس صارت تعج بالمقابر والقري مهجورة والاحساس عند الناس أن الله تخلي عنهم فزادت جرائم القتل وصار الأغنياء الناجون يتبرعون بالفتات إلى المؤسسات الخيرية وبخاصة إلى المستشفيات زكاة عن نجاتهم من الطاعون وأصبح الكل يتحدث عن أن الحياة قصيرة ومأساوية⁽³⁾. لقد كان الطاعون في أوروبا أكثر فتكاً في التاريخ كما أحدث تغيراً ديموغرافياً كبيراً فهو لم يؤدي إلى قتل الناس فقط بل غير الماديات وأثر على المعدات والمباني والبنية التحتية، كما أن قلة الاهتمام أدى إلى موت المواشي وانهيار للموارد الطبيعية⁽⁴⁾. إن العالم بعد الطاعون الأسود الذي راح ضحيته ملايين من البشر عرف تغييرات جذرية اجتماعية واقتصادية وسياسية، إذ انتقل من نظام العبودية إلى نظام الحرفية وتطورت أساليب التصنيع باكتشاف تقنيات جديدة كالنجم وغيره كما أدى إلى نشوء الدولة القومية الحديثة⁽⁵⁾. لقد هدم الوباء البناء الاجتماعي ونخر في التكوين الاسري في أوروبا فتباعد الناس عن بعضهم البعض خوفاً من العدوي، وكثير من الاسر لم تمد لها يد العون والمساعدة وفي بعض الأسر تركوا المصابين بالطاعون في بيوتهم أو في الخلاء لمواجهة مصيرهم وهو الموت المحتم.

¹) Dohar.w, The Black Death and Pastoral Leadership: The Diocese of Hereford in the Fourteenth Century, The Journal of Ecclesiastical History, Vol 47, Issue 2, 1996, pp. 372 – 373

²) Gasquet.F.A, The Great Pestilence (A.D. 1348-9), Now Commonly Known as The Black Death, 1893, p. 71-91.

³) الطاعون الذي ضرب أوروبا العصور الوسطي، حسني عايش مجلة الغد، القاهرة، 2020، ص30.

⁴) Remi Jedwab and Others, The Economic of the Black Death, Washington, 21, 2020,P.1

⁵) أثر الأوبئة في الاقتصاد دراسة مقارنة، تيسير الرادوي، محاضرة أقيمت في مؤتمر الدوحة 26-ابريل - 2020م،

وقد قال المؤرخ الفرنسي جان فرويسارت بأن الطاعون في إنجلترا تسبب في هجرة السكان واختفاء تام لحوالي 1000 قرية وتشير التقديرات التقريبية إلى أن 25 مليون شخص في أوروبا ماتوا من الطاعون أثناء الموت الأسود ولم يصل عدد سكان أوروبا الغربية مرة أخرى إلى مستوي ما قبل عام 1348 م حتي بداية القرن السادس عشر الميلادي⁽¹⁾.

ولقد أثر الطاعون علي حياة الناس واختل في ذلك الوقت نظام الدفن وحق الأموات في قبورهم واولئك الذين تركوا دون خدم أو أصدقاء وظلت جثثهم ملقاة في الطرقات أو في منازلهم المقفرة المهجورة وخول أحد الحكام سلطة جمع أكوام الجثث المختلطة ونقلها بالبر أو بالبحر ثم مواراتها في حفر عميقة بعيدة عن حدود المدينة وأحس أقسي الناس قلوبا وأكثرهم رذيلة بالخطر المحدق بهم وبالمحنة العامة التي تنتظرهم فأيقظ ذلك في نفوسهم الندم ولكن ما إن رجعت إليهم صحتهم عادوا إلي أهواءهم و عادتهم⁽²⁾.

وانعكست الآثار النفسية للموت الأسود شمال جبال الالب من خلال الانشغال بالموت والحياة الأخرى التي تجلت في الشعر والنحت والرسم والكنيسة الكاثوليكية فقدت بعضاً من احتكاكها علي خلاص النفوس وسيطرتها علي الفكر الأوروبي في العصر الوسيط⁽³⁾.

أما الفن كالرسم فقد صار قاتماً وصارت رقصة الموت ترسم علي جدران الأديرة⁽⁴⁾. كذلك تأثر الفكر الأوروبي بالطاعون وخاصة الأدب فظهرت القصص الكثيرة عن أحوال الناس ومآسئهم في تلك اللحظات من خلال كتابات بعض الأدباء في ذلك العصر ويذكر منهم علي سبيل المثال جوفاني بوكاتشو Giovanni Boccacci الذي كان مؤلفاً وشاعراً إيطالياً ومؤلف العديد من الأعمال البارزة بما فيها ديكاميون وهو يضم 100 حكاية عن سبع شابات وثلاثة شبان يلتجئون في فيلا معزولة خارج فلورنسا هرباً من الموت الأسود الذي أصاب المدينة⁽⁵⁾.

لقد أثر الطاعون على حياة الناس العامة والخاصة وأصبحت فترة انتشاره فترة مظلمة لكثير منهم فقدوا فيها أسراهم واصدقائهم ومن بقي حيا منهم خاف من فقدان صحته، لقد كانت أعوام ما بين عامي 1347 - 1352م أعوام مريعة علي مدن أوروبا، حيث برزت آثاره متجلية في أحوالهم الاقتصادية والدينية والاجتماعية والنفسية والأدبية ومهدت تأثيراته للعصر جديد عرف بعصر النهضة في أوروبا

¹) History .com Editors, Black Death,2020, www.history.com

²) اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها، ادوارد جيبون، ج 2، الهيئة المصرية للكتاب 1997م، ص312.

³) History .com Editors, Black Death,2020, www.history.com

⁴) الطاعون الذي ضرب أوروبا العصور الوسطي، حسني عايش مجلة الغد، القاهرة، 2020، ص30

⁵) Black Death, Effects and Significance, Britannica Buyers guide

وكان لسان حاله يقول النهوض بالإنسان الأوربي بعد العديد من المآسي والمصاعب التي أصابته وأصابت فكره وعقله وحياته

سادساً: الآثار الاقتصادية للطاعون الأسود

إن معظم الثروة في أوروبا حتى بعد التوسع الحضري في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين كانت تأتي من الأرض الزراعية فقد تحددت لكل من الارستقراطيين والعمال الزراعيين مهامهم، فكان هؤلاء العمال فلاحين يمارسون حياتهم وفقاً لنظام الطبيعة Manorial System واتخذ ذلك النظام خلال القرن الحادي عشر هيئته الأخيرة فكان هؤلاء الفلاحون في معظمهم مستأجرين غير أحرار وأقناناً يحوزون أرضاً تقع تحت سيطرة الارستقراطية العسكرية التي إليها كان ينتمي المملك ولم يكن الفلاحون يمتلكون الأراضي التي يزرعونها والصحيح أنهم يقومون بزراعتها مقابل ثلاثة شروط أولاً أن يؤدوا لساداتهم أجره عن الأرض الصالحة للزراعة وثانيهما خضوعهم لنظام السخرة وثالثهما أن يخضعوا للالتزامات الأخرى وتشمل ضرائب دورية تدفع عن التراكات وعن اشهار الزواج فضلاً عن رسوم يؤدونها نظير استخدام طواحين السيد (1).

لقد أوجد الطاعون فراغاً كبيراً في حياة السكان الاقتصادية فانتشار المرض قلل من قدرة الإنسان على الإنتاج والتطور الاقتصادي وما يتبعه من ابتكارات كما أن الوباء ضعف القدرة السكانية وبتضاؤل عدد السكان صار كثير من الاملاك بلا ملاك وكثير من القرى بلا قرويين، وصار الفلاحون يستأجرون الأرض من الاقطاعيين بالمال وليس مقابل العمل القسري وحين حاولت الحكومات من تخفيض الاجور أو تحديدها هب الفلاحون متمردين علي ذلك (2).

ولكن عندما اجتاحت الطاعون هذه الأراضي الزراعية كانت عواقب هذه الكارثة العنيفة كثيرة تبع ذلك علي الفور توقف الحروب وتراجع مفاجئ في التجارة لكنها كان لفترة قصيرة فقط، وكانت النتيجة الأكثر دموية وخطورة هي التخفيض الكبير في مساحة الأرض المزروعة بسبب وفاة العديد من العمال وثبت أن هذا كان خراب وخسائر لدي العديد من ملاك الأراضي مما أجبرهم نقص العمالة علي استبدال الأجور أو الايجارات المالية بدلا من خدمات العمل في محاولة للحفاظ علي المستأجرين، كما كان هناك أيضا ارتفاع عام في أجور الحرفيين والفلاحين هذه الأوضاع كان لها تأثيرها الصارم في التقسيم الطبقي في المجتمع الاوربي (3).

¹ (الموت الأسود، روبرت جوتفريد، ترجمة أبو كحيلة، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2017، ص48.

² (الطاعون الذي ضرب أوروبا العصور الوسطي، حسني عابش مجلة الغد، القاهرة، 2020، ص30.

فلقد قاست فرنسا الأمرين حيث حصد الطاعون زهرة شبابها الأقوياء ومزارعيها حتي أضحت الحقول خالية من الأيدي العاملة اللازمة للحراث وجمع المحاصيل ورعي الماشية، كما ترتب عليه نتائج اجتماعية وأخلاقية خطيرة وبانقشاع هذه الكارثة عام 1350م عاد الناس إلى حياتهم العادية ولكن بعد أن أوجدت سلسلة من التغيرات والانقلابات في المجتمع الأوروبي عامة والفرنسي بصفة خاصة ذلك أن هذا الطاعون ترتب عليه قلة الأيدي العاملة في الزراعة ومطالبة الفلاحين بأجور أحسن وأكثر إغراء من الخدمة في الأرض فسنت فرنسا قوانين حرمت علي الفلاحين وسائر العمال أن يأخذوا أكثر من الثلث فوق أجورهم قبل الطاعون، كما قلت خدمة الفلاحة في أرض النبلاء الفرنسيين ووضحت فائدة استخدام الفلاحين من مختلف الجهات على قاعدة الأجور النقدية، وهكذا أخذت العوامل الاقتصادية الجديدة تقوض شيئاً فشيئاً من دعائم النظم الإقطاعية التي كانت في طريقها إلي الزوال وهكذا أيضاً أخذ الفلاح القن يتحلل تدريجياً مما يربطه بالأرض ومن قيوده وغداً حراً نوعاً ما في تقدير خدماته بأجر نقدي⁽¹⁾.

لقد أثر الطاعون كذلك على الحياة الدينية ووضح ذلك جلياً بعد انتشاره بين المدن وانتقاله بين الناس فرجال الدين شأنهم شأن العامة فالطاعون لم يفرق بينهم حيث قضى علي نسبة كبيرة منهم مما دفع بعضهم عمله إلى هجر الكنسي، ونتيجة لذلك ضعفت سلطة الكنيسة وسلطة النبلاء وأرخى الطاعون البنية الاجتماعية التي كانت متمزعة مخلفاً مجتمعات أكثر حرية وانفتاحاً في مواجهة التحديات فيما بعد أي التي جاءت بها النهضة والإصلاح الديني والتوسع الاقتصادي⁽²⁾.

كذلك كان لذلك المرض أثره على الناس الذين تجمعوا في الكنائس على اعتبار تصورهم أنها يمكن أن توفر لهم الحماية نظراً لطابعها الديني، ولا تغفل أن العصور الوسطى بصفة عامة سواء في الشرق البيزنطي أو الغرب الأوروبي اتسمت بتعاظم الظاهرة الدينية التي تكثفت بصورة واضحة خلال أحداث الكوارث الطبيعية علي نحو خاص وكما هو متوقع في مثل هذه الأحداث رأي المعاصرون له أن ذلك الطاعون إنما حدث لعقاب إلهي نظراً للآثام التي ارتكبت وكان ذلك له أثره في تعميق الاتجاه إلى الجانب الديني كملاذ من الكارثة البوائية الفتاكة⁽³⁾.

وبينما كان الطاعون في عنفوانه ينتقل من مدينة إلي أخرى فقد نهض أناس من ألمانيا وفلاندرز وهينو واللورين وبدأوا بفكرة جديدة وهي أن يقوموا بتعرية اوساطهم وينتظموها في جماعات كبيرة وعصب ويخترقوا شوارع المدن وميادينها في مواكب وكانوا يشكلون في المدن الكبيرة دوائر ويقومون بجلد ظهورهم بسياط ثقيلة الوزن، وقد علتهم البهجة ويرددون بأصوات عالية ترانيم تتلاءم مع طقوسهم

1 (تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها، جوزيف نسيم يوسف، دار النهضة العربية، بيروت، 1984م، ص208.

2 (الطاعون الذي ضرب أوروبا العصور الوسطى، حسني عايش، مجلة الغد، القاهرة، 2020، ص30

3 (الامبراطورية البيزنطية، محمد مؤنس عوض، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، القاهرة، 2007، ص173.

وكانت تلك الترانيم قد أعدت خصيصاً لهم وهكذا ظلوا على مدى ثلاثة وثلاثين يوماً يجوسون في
 طرقات العديد من المدن يكفرون عن ذنوبهم ويهيئون للمارة مشهداً مهيباً فكانوا يضربون أكتافهم
 وذراعهم بسياط مزودة بأسنان حديدية مما يجعل دماءهم تسيل على أجسادهم⁽¹⁾.

أما الرواية الأخرى فهي لـي (جان فروازار Jean Froissart) وهو مؤرخ فرنسي له مؤلفات عن
 تواريخ الدول الأوروبية في القرن الرابع عشر الميلادي حيث قال " كان التائبون يطوفون بأنحاء ألمانيا
 قادمين من خارجها يكفرون عما ارتكبوه من خطايا فيجلدون أنفسهم بسياط من جلد معقود بإحكام
 وبهذه السياط مسامير حديدية صغيرة مما يجعل بعضهم ينزف بشدة عند لوح الكتف، وكانت بعض
 النسوة الحمقاوات يأتين بخرق من قماش يجمعن فيها الدماء السائلة ويلطخن بها عيونهن بزعم أن في
 تلك الدماء الشفاء لهن من الأمراض وسرعان ما امتدت تلك الحركة السياطون (إلى أواسط أوروبا)
 (2).

1 (الموت الأسود، روبرت جوتفريد، ترجمة أبو كحيلة، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2017، ص116.

2 (الموت الأسود، روبرت جوتفريد، مرجع سابق، ص30.

سابعاً: النتائج

- في ضوء ما تم طرحه من محاور تناولت الطاعون الأسود ، يمكن استخلاص النتائج التالية:
- سُمِّي "الطاعون الأسود بهذا الاسم بسبب البقع الداكنة التي كانت تظهر على أجساد المصابين نتيجة النزيف تحت الجلد.
 - إن الطاعون مرض معد وله أنواع متعددة ، وكان أخطرهما هو الطاعون الرئوي والذي ينتقل بسرعة عبر الهواء والتنفس.
 - ارتبط انتشار الوباء في أوروبا بشكل رئيسي بحركة التجارة ، حيث كان التجار القادمون من المناطق الموبوءة ينقلونه عبر سفنهم وبواجرهم إلى الموانئ الأوروبية ، فتتحول هذه الموانئ إلى بؤر لانتشار المرض.
 - إن الموت الأسود استطاع أن يغير من الحياة التي عاشها الشعب الإنجليزي؛ ويظهر هذا جلياً في طبيعة العلاقات داخل الأسرة التي مرَّق روابطها الموت الأسود حيث ساد الفزع والخوف بين الناس.
 - بروز طبقة جديدة في مجتمع الغرب الأوروبي أفرزها هذا الوباء ، بعد أن ورث العديد من الأحياء أموال غيرهم الذين قضوا نحبهم في هذه الجائحة.
 - انكماش حركة التجارة وتعطلها ، وإغلاق الأسواق وتوقف عمليات البيع والشراء ، وارتفاع أسعار السلع والبضائع ، وأجور الفلاحين والخدم وحفاري القبور؛ لشدة الوباء وقسوته ، وانشغال الناس بالمرض ، وكثرة الموتى.
 - إن الطاعون الأسود يعدّ أخطر كارثة عصفت بالعالم الأوروبي الوسيط ، وتظهر تجلياته وخطورته فيما أحدثه من انحدار ديمغرافي؛ بالقضاء على عدد كبير من سكّان غرب أوروبا.
 - أدى الطاعون الأسود إلى نقص كبير في اليد العاملة ، مما تسبب في انهيار اقتصادي مؤقت وتغيير في البنية الاجتماعية.
 - فسر بعض الأفراد الطاعون بأنه غضب إلهي ، مما زاد من الممارسات الدينية كالتوبة ، بينما لجأ آخرون إلى العنف ضد جماعات معينة مثل اليهود متهمين إياهم بنشر الوباء.
 - أدى الطاعون الأسود إلى انهيار بعض الإقطاعيات الزراعية واضطراب النظام الإقطاعي التقليدي.
 - ساعد في تقويض سلطة الكنيسة الكاثوليكية ، إذ فشلت في تقديم تفسير أو حماية للناس من المرض.
 - أدّى موت عدد كبير من القادة ورجال الدين إلى حدوث فراغ سياسي وديني.

المراجع

1. أثر الاوبئة في الاقتصاد دراسة مقارنة، تيسير الرداوي، محاضرة أُلقيت في مؤتمر الدوحة 26-ابريل - 2020م،
2. اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها، ادوارد جيبون، ج 2، الهيئة المصرية للكتاب 1997م
3. الامبراطورية البيزنطية، محمد مؤنس عوض، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 2007
4. انتشار الطاعون في أوروبا في العصر الوسيط، عزالدين الدرسي وفتحية ميمون الطيب، مجلة كلية الآداب، جامعة بنغازي، ع51، 2021 .
5. الأوبئة والتاريخ والمرض والقوة والإمبريالية، شلدون واتس، ترجمة: أحمد عبد الجواد، القاهرة، المركز القومي للترجم، 2010
6. بذل الماعون في فضل الطاعون، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: أحمد عصام عبد القادر، جدة، دار المنهاج، 2006
7. تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي، الكويت، وزارة الإعلام، 1987
8. تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها، جوزيف نسيم يوسف، دار النهضة العربية، بيروت، 1984م
9. تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد"، في ثلاث رسائل أندلسية في الطاعون الجارف (749هـ/1348م)، تحقيق: محمد حسن، سلسلة التاريخ، بيت الحكمة، أحمد بن علي الأنصاري ابن خاتمة الأندلسي، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون
10. تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد، ابن خاتمة الأنصاري، تحقيق: محمد العربي الخطابي، الرباط، منشورات كلية الآداب، 1987
11. الديكاميرون، جيوفاني بوكاتشو، ترجمة صالح عثمان، دار المدى للثقافة، سوريا، دمشق، 2006 م
12. الطاعون الذي ضرب أوروبا العصور الوسطى، حسني عايش مجلة الغد، القاهرة، 2020
13. العبروديان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، تحقيق: خليل شحادة، ج1، بيروت، دار الفكر، 1988
14. عودة الموت الأسود أخطر قاتل على مرّ العصور، سوزان سكوت، كريستوفر دنكان، ترجمة: فايفة جرس حنا، مراجعة: هان سليمان، المملكة المتحدة، مؤسسة الهنداوي، 2017

15. في: ثلاث رسائل أندلسية في الطاعون الجارف (749هـ / 1348م)، لسان الدين محمد بن عبد الله
 الغرناطي بن الخطيب تحقيق: محمد حسن، سلسلة التاريخ بيت الحكمة، المجمع التونسي للعلوم
 والآداب والفنون، 2013
16. القانون في الطب، ابن سينا، ج 3: تحقيق: إبراهيم مدكور، القاهرة، الهيئة المصرية العامة
 للكتاب، 1999
17. لسان العرب، ابن منظور، ج 13، بيروت، دار صادر، 1999
18. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ط4، القاهرة، مكتبة الشروق الدولية، 2004
19. المقدمة، ابن خلدون. بيروت: دار الفكر، 2005
20. الموت الأسود، جوزيف بيرن، ترجمة: عمر سعيد الأيوب، أبوظبي، هيئة أبوظبي للسياحة، 2013
21. الموت الأسود، روبرت جوتفريد، ترجمة أبو كحيلة، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2017.
22. الوباء الأسود في عالم القرن الرابع عشر، خوليو فالديونب بارك، ترجمة إسحق عبيد تاووضروس،
 ملتقى حول ابن خلدون، البحر المتوسط في القرن الرابع عشر، قيام وسقوط إمبراطوريات، معرض
 في القصر الملكي في إشبيلية، مايو سبتمبر، 2006
23. يتريخ أوروبا في العصور الوسطى، موريس بيشوب، ترجمة: علي السيد علي، القاهرة، المجلس
 الأعلى للثقافة، 2004

المراجع الأجنبية:

- 1 Aberth, J. (2010). From the Brink of the Apocalypse: Confronting Famine, War, Plague, and Death in the Later Middle Ages (2nd ed.). Routledge .
- 2 Aberth.J. The Black Death, The Great Mortality of 1348-1350: A Brief History with Documents, Palgrave Macmillan New York, 30 April 2016.P
- 3 André Burguière: Dictionaire des sciences matiere: peste:par Jean-Noël Biraben, Presses Universitaires de France, Paris, 1986.p.505.
- 4 Anna Montgomery Campbell: The black death and men of learning, Columbia University Press, 1931 .
- 5 Benedictow, O. J., *The Black Death and later plague epidemics in the Scandinavian countries: Perspectives and controversies*. Walter de Gruyter. 2021 .
- 6 Benedictow, O. J., *The Black Death, 1346–1353: The Complete History*. Boydell Press, 2004
- 7 Boccaccio.G, *The Decameron*, trans. by Mark Musa and Peter Bondanella, New American Library, 1982.
- 8 Britnell.R, *The Black Death in English towns*, Urban History 1 October 1994 .

- 9 Clark, G. , *A farewell to alms: A brief economic history of the world.* Princeton University Press. , 2022 , P63.
- 10 Clyn.F.J, *Annalium Hiberniae Chronicon*, (Dublin: Irish Archeological Society, 1849.
- 11 Cohn, S. K., *The Black Death Transformed: Disease and Culture in Early Renaissance Europe.* Arnold Publishers, 2002 .
- 12 Cohn, S. *Plague violence and abandonment from the Black Death to the early modern period.* Annales de démographie historique. (2017), PP.39–61.
- 13 Coulton. G. G, *The black death*, London: Ernest Benn, 1929
- 14 Crawley. C. W, *Trinity Hall, the History of a Cambridge College 1350–1975*, *The Historical Journal*, Volume 21, Issue 3, September 1978 ,
- 15 Dohar.w, *The Black Death and Pastoral Leadership: The Diocese of Hereford in the Fourteenth Century*, *The Journal of Ecclesiastical History*, Vol 47, Issue 2, 1996
- 16 Dols, M., *The Black Death in the Middle East.* Princeton University Press, 1977 .
- 17 Forrest. I, *The Politics of Burial in Late Medieval Hereford*, *The English Historical Review*, Vol 125, Issue 516, October 2010, .
- 18 Gasquet.F.A, *The Great Pestilence (A.D. 1348-9), Now Commonly Known as The Black Death*, 1893
- 19 Gasquet.F.A, *The Great Pestilence (A.D. 1348-9), Now Commonly Known as The Black Death*, 1893 .
- 20 Giladi.A, *Mortality enfand and child*, *journal of the economic and social history of the orient* Vol 32, 1989.
- 21 Gottfried.R, *Bury St. Edmunds and the Urban Crisis: 1290-1539*, Princeton University Press. 1982
- 22 Gottfried.R, *Epidemic Disease in Fifteenth Century England: The Medical Response and the Demographic Consequences*, Leicester University Press, 1978
- 23 Guy de Chauliac: *La Grande Chirurgie de Guy de Chauliac*, *Chirurgien, Maistre en Médecine de l'Université de Montpellier: Composée en l'An 1363*, Felix Alcan, Paris, 1890 .
- 24 Guy de Chauliac: *La Grande Chirurgie de Guy de Chauliac*, p.170-171 ; Walsh J.J.: *Guy de Chauliac, Old-time makers of medicine*, p. 284-286.
- 25 Hawkins.D, *The Black Death and the new London cemeteries of 1348*, *Antiquity*, Vol 64, Issue 244, September 1990
- 26 History .com Editors, *Black Death*, 2020, www.history.com
- 27 Holt. J, *Presidential Address: Feudal Society and the Family in Early Medieval*

- England: IV. The Heiress and the Alien," Cambridge University Press: 12 February 2009
- 28 Horrox, R. (2013). *The Black Death. Manchester University Press*, 2013
- ..
- 29 Horrox, R. (Ed.), *The Black Death. Manchester University Press*, 1994,
- 30 Horrox, R. *The Black Death (Manchester Medieval Sources*
- a. F. C. Hecker: *The Black Death in the Fourteenth Century*, Translator: B. G. Babington, A. Schloss, Foreign Bookseller, London, 1833, p.4-6.
- 31 Jean de Venette: *The Chronicle Of Jean De Venette*, translated by Jean Birdsall, ; edited, with an introduction and notes, by Richard A. Newhall. Columbia University Press, 1953 ,
- 32 Jean Froissart: *Chronicles*, ed. Brereton, Geoffrey, Baltimore: Penguin Books 1968 ,
- 33 Jedwab, R., Johnson, N. D., & Koyama, M., *Pandemics and development: The Black Death and the long-run. Journal of Economic Literature*, 60(4), 2022
- 34 John Aberth: *The Black Death, The Great Mortality of 1348-1350 abrief history with documents*, (Bedford Series in History and Culture), Palgrave Macmillan, New York, 2009, p.1-2.
- 35 Karl Sudhoff, "Pestschriften aus den ersten 150 Jahren nach der Epidemie des 'schwarzen Todes' 1348," Archiv fur Geschichte der Medizin, 1911, p.43-44; Anna Montgomery Campbell: *The black death* .
- 36 Kelly, J., *The Great Mortality: An Intimate History of the Black Death, the Most Devastating Plague of All Time. HarperCollins*, 2005 .
- 37 Latham, R & Matthews, W, *The Diary of Samuel Pepys*, vol. VII (Berkeley: University of California Press, 2000), pp.30-35.
- 38 Mezeray *Histoire de France*, Tom. II. Paris, 1685 ..
- 39 Mullett, C. F, *the Bubonic Plague and England*, University of Kentucky Press, 1956 .
- 40 Norman F. Cantor, *In the Wake of the Plague: The Black Death and the World It Made*, Free Press, New York, 2001, 14-15; John Aberth: *The Black Death*
- 41 Platter, F, *Beloved Son Felix: The Journal of Felix Platter a Medical Student in Montpellier in the Sixteenth Century*, Frederick Muller, London, England, 1961
- 42 Remi Jedwab and Others, *The Economic of the Black Death*, Washington, 21, 2020
- 43 Roger French: *Canonical Medicine: Gentile Da Foligno And Scholasticism In The Light Of Nature Essays In The History And Philosophy Of Science*

- Presented To A.C. Crombie, Edited By I.D. North And I.I. Roche, Lancaster, Boston, 1985 .
- 44 Rowell. G, The liturgy of Christian burial : an introductory survey of the historical development of Christian burial rites, London : S.P.C.K for the Alcuin Club, 1977
- 45 Stenseth, N. C., et al. و. No evidence for persistent natural plague reservoirs in historical and contemporary Europe. Proceedings of the National Academy of Sciences, 119(32), 2022, e2122677119.
<https://doi.org/10.1073/pnas.2122677119>
- 46 Stephane Barry: La Peste noire dans l'Occident chrétien et musulman, 1347-1353 Canadian Bulletin of Medical History, Volume 25 Issue 2, Fall 2008, .
- 47 Thompson.A, Registers of John Gynewell, Bishop of Lincoln, for the years 1347- 1350, Archaeological journal, Vol 68, 1911 ,
- 48 Thompson.H, The Pestilences of the Fourteenth Century in the Diocese of York, Archaeological Journal, Volume 71, Issue 1, 1914, pp. 97-154
- 49 Thrupp, S. L., the Merchant Class of Medieval London, 1300-1500, University of Michigan Press, 1989
- 50 Walsh J.J.: Guy de Chauliac, Old-time makers of medicine, Catholic Churchmen in Science, New York, 2007, p. 282– 285 ; David A. K. Watters: Guy de Chauliac: pre-eminent surgeon of the Middle Ages, ANZ Journal of Surgery , October 2013 .
- 51 Zuber.C. K, Plague and Family Life, In (Jones.M, The New Cambridge Medieval History), ambridge University Press: 2008



مجلة الأندلس للعلوم الإنسانية والاجتماعية

مجلة دولية شهرية علمية محكمة

الترقيم الدولي الإلكتروني: ISSN:2410- 521X

الترقيم الدولي الورقي: ISSN:2410- 1818

البريد الإلكتروني: journal@andalusuniv.net

المجلة مفهرسة في المواقع الآتية :



2025	2024	2023	2022	2021	العام
0.5978	0.3068	0.3759	0.1954	0.2692	معامل أرسيف
1.59	1.55	1.25	1.73	1.60	معامل التأثير العربي